حِزام ناسِف

بيانات رواية حزام ناسف:

- الرواية: حزام ناسف
- الكاتب: أحمد أشرف المطري
- النوع: رواية
- مراجعة: رياض حَمّادي
- تدقيق لغوي: محمد عبداللطيف
- تصميم غلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- سنة الإصدار: ٢٠٢٤
- الناشر: حزاوي للتنمية الثقافية
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٣٣٦ لسنة ٢٠٢٤

هذا الكتاب متخيل أدبي ولا يُعبر بالضرورة عن رأي كاتبه ولا رأي بنك اليمن والكويت ولا مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية ولا رأي الجائزة وإدارتها.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى المصدر، شاملًا: اسم الكتاب واسم كاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، وما عدا ذلك يُرجع للمؤلف لأخذ إذن خطي منه لأي استعمالات أخرى.

YKB بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي HAZAWI جائزة السرد اليمني

(روايـــــــــــة)

حِزام ناسِف

تأليف

أحمد أشرف المطري

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

HAZAWI
جائزة السرد اليمني

إهداء

ذات يوم، عثرت في طريقي على عُملة نقدية من فئة ١٠٠٠ ريال، وحين سألت المارة من الجيران: "لمن هذه النقود؟" رفع الجميع أيديهم وصاحوا: "إنها لي.. لا.. إنها لي أنا." وبالأمس، وأنا في طريق عودتي إلى البيت عثرتُ على طفل داخل كرتون زبالة، في وسط الشارع، عمره يوم واحد، لم يكف عن البكاء. وحين سألتهم: "طفل من هذا؟" لم يُجبني أحد.. هذا الكتاب أهديه لذلك الطفل الذي أسميته "عيسى"، وإلى روح فاطمة بنت أحمد صبرة، جدتي، أول الحزاوي في حياتي.. وأجملها.

حقِّروني يا دود، لو لم تكونوا .. حُقراء، ما كُنتُ يومًا حقيرة.

عبدالله البردوني

مدخل

الانتحاري ٥٠١

أخبرتكم أنني سأغيب لشهر فقط.. الآن عُدت لأخبركم أنني سأغيب إلى الأبد. لم يبقَ في عمري الكثير؛ ربع ساعة من الزمن وتنتهي حياتي. نعم.. تبقت في ساعتي خمس عشرة دقيقة فقط؛ هذا كل ما أملك. الساعة لديَّ تسير بالعد التنازلي، أظنكم تفهمون معنى أن يسير الوقت بهذه الطريقة.. لا وقت لديَّ لأشرح لكم، أنا أحتضر.

ما الذي يحدث؟ أنا لا أعرف.. كل ما أعرفه هو أن مسلحين ملثمين قاموا باختطافي، صباح ذلك اليوم، من أمام محل العم سعيد، ووضعوني في سيارة لا أعلم نوعها، أظنها حافلة سوداء، بل كان باصًا أسود.. غطوا رأسي بغشاوة وحقنوني بجرعة منوم، لم أستيقظ منها إلا على أسوأ صحوة في حياتي.

الوقت يمر بأسرع من المعتاد، لماذا؟ هل لهذا الأمر علاقة باقتراب الموت؟ وجدت نفسي مرميًا في أحد براميل الزبالة الموجودة في أحد الأحياء في وسط العاصمة صنعاء، ولا أتذكر ما حدث قبل هذا. أعني: إلى أين اقتادوني؟ ومن هم؟ وماذا فعلوا؟ أخرجتُ نفسي من صندوق القمامة بصعوبة بالغة كلفتني خسارة فردتي حذائي الجلد، وحين شرعت بنفض الأوساخ عن ملابسي شعرت بشيء يكاد يمزق أمعائي. رفعت القميص ولاحظت ذلك الشيء مشدودًا على خاصرتي. احترت، وكنت أفرك عيني وكأنني في كابوس، لم أستفق منه إلا حين صرخ أحدهم:

- "داعشي.. داعشي."

رفعت عينيَّ من على خاصرتي ووجهتها إليه، وكلي رجاء ألَّا أكون أنا المقصود.

- "اهربوا.. اهربوا."
- "ولِمَ الهرب"؟ يسأله رجل عجوز، فيجيبه صارخًا:
- "لابس حزام ناسف."

لم أستطع تصديق ما يجري. أرى الناس، بكل ما أوتوا من رعب، يركضون مبتعدين عني أكثر فأكثر، وأنا لعلمي أنني لست داعشيًا، لحقتُ وراءهم أركض هاربًا مما يهربون منه، لا فائدة. نظرتُ خلفي وأمامي، شمالي ويميني، وكان الجميع يهربون مني، فأدركت الكارثة التي حلت بي.

"إنني ألبس حزامًا ناسفًا". فكرت في الذهاب إلى أقرب مركز للشرطة لإبطال مفعول المتفجرات في الحزام، ولكنني لم أفعل. قطعًا سيطلقون النار عليَّ حالما يرونني قادمًا إليهم.

أنا الآن أجلس بجوار أمي، بها أتيت إلى هذه الحياة، ومعها سأغادر.

مضت خمس دقائق إلى الآن، ماذا أفعل بالعشر الدقائق الأخرى؟ كانت أمي، في سالف الوقت، تقول لي إن أسوأ شيء في هذه الحياة أن يجهل الإنسان متى تحين ساعة موته. لقد كانت مخطئة.. أنا الآن أعرف أنني سأموت بعد ٨ دقائق

و٥٣ ثانية بالضبط. لا سبيل للنجاة. لذلك، أنا متأكد من أن أسوأ شيء هو أن تعرف لحظة موتك.

يغمرني الآن شعور باليأس، شعور بالقهر. لماذا تنتهي حياتي بهذا الشكل؟ أيضًا، لست متأكدًا من مصيري بعد هذه الحياة، في الحياة الآخرة. مع افتراض أن لا حياة أخرى بانتظارنا. لست ملحدًا، ولكن تعدد الشرائع والأديان وإيمان الناس بمعتقدات مختلفة، إيمان لا يساوره شك، كل هذا يدفعني لأتساءل: ماذا سيكون مصيري: جنة؟ جحيم؟ عدم؟ ما هو العدم؟

أنا لست إرهابيًا.. لست إرهابيًا.. أنا الضحية!

حسنًا عزيزتي "إلهام"، بقي من الوقت بضع ثوانٍ سأقول لك فيها إنني أكره أبي لسبب ما، لست أكرهه، بل أكره أن أتذكر ما فعله بوالدتي ذلك اليوم. في هذه اللحظات سأخبرك بماذا أحلم. في الحقيقة هي أمنية واحدة فقط، أن يقال لي إن ما يحدث الآن مجرد مقلب أو مزحة خبيثة. في الثواني الأخيرة من حياتي أتمنى أن أعيش أكثر.. لأسبوع، لثلاثة أيام، أو حتى لساعة أخرى. لا أريد أن أموت الآن لا أريـ....

الفدائي ٥٠١.. هل تسمعني؟ حَوِّل."

المصعد

لم يعد لي في النجاة أمل آخر بعد أن ظهرت صورتي في الصحف، الشوارع، وفي نشرات الأخبار، موسومة بالخط الأحمر: "مطلوب." هاتفتُ أمي لتطمئن. قالت إن ذلك لن يحدث إلا إذا رأتني. وافقت على مضض، واتفقت معها على أن ألحقها إلى المكان الذي تقصده الآن لنلتقي أمام بوابة "المستشفى اليمني النمساوي". وهذا ما حدث، ظننت أني سأعود إليها إلى الأبد، كم أنا مشتاق إليها، أتوق للحديث معها، لكن آه.. لو كان اللقاء في مناسبة سعيدة. هي لا تعرف أنه اليوم الأخير من حياتي، وأنني ما أتيتُ إليها سوى للوداع.

نعم. سأتوقف عن القتل، سيتوقف الرجل الغريب عن إلقاء الأوامر، ما إن يضغط على زر التفجير للحزام الناسف الذي أرتديه. لمحتها من بعيد واقفة تتلفت يمنة ويسرة تمشِّط الشوارع بحثًا عني، كنت في طريقي إليها، وهنا بدأت الاشتباكات، سيارتان من نوع "هايلوكس تويوتا" تحاولان اقتحام بوابة المستشفى، في حين تحاول قوة من جنود الحراسة صدهما بالكلاشنكوف. أمي يابسة في مكانها، لماذا لم تهرب؟ أتراه الخوف قيد حركتها. بجوارها سقط الجندي الأول برصاصة، بدا أنها اخترقت جمجمته، يلفظ أنفاسه الأخيرة. العساكر الآخرون يرفعون أسلحة فرغت من الذخيرة أو أنهم يعلنون الاستسلام لا أدري. المهم أن أسلحتهم لم تعد تصدر أي صوت. وفي هذه اللحظة حدث انفجار كبير في الفراغ الفاصل بين الطرفين،

سقط على أثره الواقفون أرضًا، وأنا وأمي منهم. ماذا حدث؟ دوي الانفجار في أذني لا يزال يمنعني من سماع أي صوت آخر. أولئك ذوو اللحى من فوق السيارتين توقفوا عن إطلاق النار فزعًا، أو أن الذخيرة نفدت لديهم أيضًا. أستغل صدمتهم بالانفجار وأهرع إليها على أربع، خشية اعتراضي طريق رصاصة طائشة من هذا الفريق أو ذاك. أطمئن إن كانت بخير، الدماء تسيل منها، تقول لي إن بها شرًا، يا الله.. أماه، أماه.. أهزها علها تفتح عينيها، أو تحرك شفتيها، وتقول: أنا بخير.

تتجدد الاشتباكات بشكل أكبر، وصلت تعزيزات من شرطة النجدة لكنها، كما يبدو، لا تكفي، هم ٧ جنود وأولئك أكثر من ١٢ مقاتلاً، أحمل أمي إلى داخل المستشفى، عباءتها تحول دون معرفتي جراحًا تسيل منها الدماء، لا أحد بعد في المستشفى يعرف ما حدث خارج البوابة الرئيسية. لم أجد طبيبًا مسعفًا لأمي. أسأل موظفة الاستقبال: أين غرفة الطوارئ؟ سماعة الهاتف في أذنها تلجم فمها عن إجابتي، تشير بيدها إلى أعلى طوارئ في الطابق العلوي؟ كيف؟ لم أر أمامي سوى مصعد فيه أربعة أو خمسة أشخاص تقريبًا، بينهم طبيبة، هرعتُ وقد أوشك المصعد على الانغلاق، لولا أن مدت الطبيبة يدها إلى الخارج. تمكنت من الدخول وأنا أحمل أمي بين يديَّ، وقبل أن ينغلق من جديد دخل بعدي شاب يحمل صحيفة وكاميرا وحقيبة ظهر، تعثر بشيء جعله يسقط داخل المصعد.

"الله"،

تمتم الملتحي.

قال الشاب وهو يضع يده في ظهره موضع الألم:

"هكذا العمل الصحافي يرمينا إلى المشاكل دائمًا."

"هل نامت إلى الأبد؟ قال طفل ظهر من حيث لا أدري، وهو يشير إلى أمي، لم يجبه أحد.

"ما بها؟" سألتني الطبيبة.

"لا أدري". قلت لها وأنا أُريها الدماء.. وضّحَت:

"انفجرت عبوة ناسفة على بعد أمتار منها."

راحت تفك أزرار العباءة. غض الصحافي بصره.

قال الملتحي باستياء: "استريها، لا يجوز أن نراها بهذا الشكل."

نظرنا إليه جميعًا بغضب.

"لو حماها ربك ما وصلت إلى ما."، قالها الشاب الأول، ولم يكمل نطقها. نعته الملتحي بـ "الملحد."

كان باب المصعد قد أغلق، ولكنه فجأة توقف محدثًا جلبة قوية. ترقبنا أن يُفتح الباب، دقيقة، اثنتان وخمس دقائق... لكنه بعد طول الانتظار لم يفتح.

الملحد

خرج عبدالله من الحجز أخيرًا، واتجه برفقة والده عائدًا إلى البيت، بعد أن تعهد الأخير، لإدارة أمن المستشفى بتحمل كامل التكاليف المتمثلة في ناتج الخسائر والأضرار التي ألحقها ابنه عبدالله بالأجهزة الطبية، إبان سماعه الطبيب يعلن خبر وفاة سعاد. كان الناس، قبيل صلاة الظهر، متجمعين أمام بيت أهل المتوفاة، كل الوجوه يكسو ملامحها الحزن، والعيون تترقب رؤية الموت. دخل عبدالله، إلى المنزل، يبحث عن أخته سعاد ليسلم عليها ويقوم بتوديعها قبل الرحيل الأخير. وجدها هناك، في غرفتها، نائمة كالملاك، اقترب منها، ولأول مرة رآها وهي خالية من الحياة. استغرق في تأملها ثم وضع قُبلةً على جبينها وبكى.. بكى لأن هذه ستكون المرة الأخيرة التي يرى فيها سعاد.

شيع المعزون، من أهلها ومعارفهم، جثمان الفقيدة إلى المسجد، حيث صلى أخوها عليها، والآخرون، صلاة الجنازة.

لم يكن قد تقبل الصدمة، كان يرى جثمانها كما لو أنه غير حقيقي. رَغِب في التأكد من أن موتها حقيقة، وأن ما يجري ليس كابوسًا يراه في منامه. همس في أذن أحدهم، وكان يحرك لسانه بالاستغفار والتسبيح:

"جنازة من هذه؟"

لم يُجب. أعاد عبدالله السؤال عليه، وهذه المرة أجاب الرجل، وعيناه تحدقان فيه:

"ما بك.. يا عبدالله، صلِّ على النبي، واذكر الله!"

لم يسمع الإجابة التي كان يتوقعها، تركه وسأل آخر، كان يتهيأ للصلاة التي كانت على وشك أن تبدأ. أجاب ويده تربت على كتفه:

"إنها لفتاة من هذا الحي يقال إن اسمها سعاد".

"سعاد!"

أحيانًا نسعى لمعرفة حقيقة ما، ونحاول التأكد من أمور، في نهاية المطاف، يقتلنا معرفتها.

"لماذا يستعجل الموت زيارة من نحبهم ومن نرى فيهم سببًا وحافزًا مقنعًا يدعونا لمواصلة هذه الحياة المريبة؟"

اصطف الجميع خلف الجثمان استعدادًا للصلاة التي لا ركوع فيها ولا سجود. يعلم الجميع أن صلاة الميت أربع تكبيرات، بعد الأولى تُقرأ الفاتحة، بعد الثانية الصلاة الإبراهيمية، بعد الثالثة الدعاء للميت، وبعد الرابعة.. الوداع..

صلى الجميع على هذا النحو، باستثناء ذلك القلب المكلوم حزنًا على رحيل أخته.. فقد اتخذ نهجًا آخر في الصلاة.

"الله أكبر."

كان ينتظر أن تقوم سعاد من الجثمان وتخبره بأن الأمر محض مزحة، كما تفعل معه دائمًا، فكان يترقب ويتمتم في نفسه: "ستنهض الآن.. لن تنهض.. ستنهض.. لن تنهض.. بل ستنهض.. لن."

"الله أكبر."

أخبرته سعاد، قبل أيام من دخولها المستشفى، إنها لم تعد تخشى شيئًا اسمه الموت، ذلك أنها رأت في منامها وكأنها تموت.

"الموت بحد ذاته مش مخيف.. حلمت إني مُت.. هذاك الشعور وتلك الحالة كانت مجرد حلم، كان شعوري بها كشعوري بموت حقيقي، كان حادثًا سريعًا ولحظة موت سريعة، لحظتها شفت روحي بتخرج مني بهدوء وتطلع للسماء، مثل حلقات الأطفال.. رفعت يَدَّاتي وأكتافي ودِّي أمسكها، ونزلتهن باستسلام، وقلت بيقين وأنا مبتسمة: خلاص مُتّ. هذي الكلمة بذاك الشعور، بذاك النفس الطويل، عنت لي الكثير.. خلاص مُتّ.. يعني خلاص ما عاد في خوف من أي شيء، يعني خلاص انزاحت كل الهموم والأعباء، من أمراض وهموم ومشاعر وارتباطات وناس، يعني خلاص أنا حُرة، حرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وعرفت أن مهما ظننا أننا أحرار في هذه الحياة تبقى تلك اللحظة هي المعنى الحقيقي للحرية".

"الله أكبر."

"يا رب يا عليم.. قل لي إنها ليست ميتة.. يا حي يا قيوم.. هذه سعاد لا تزال حية في قلبي.. يا عزيز يا قدير لماذا لا أموت أنا وتحيا سعاد بدلاً عني؟!"

"الله أكبر."

"السلام عليكم ورحمة الله."

كلهم يسعون لقهره، نعم الجميع يسعى لذلك، حتى الرجل ذو اللحية الحمراء، إمام المسجد الشيخ هزاع، أسرع واستعجل بالسلام، عنوة، ولم يترك لعبدالله فرصة الصلاة على سعاد. ود حينها لو أن الصلاة تُعاد مرة أخرى، سيترك فيها التفكير والسهو، سيتحدث فيها مع الله ويدعوه بأن يعتني بسعاد.

حين حمل نعش سعاد شعر بخفته، أصبح وزنها خفيفًا جدًا. يقول رجال الدين إن الله يخفف المرء من ذنوبه حين يمرض. لم تكن لسعاد ذنوب كثيرة. حسنًا، هي لم تمرض، ما الذي جعلها خفيفة هكذا؟

الملتحي

كان الشيخ أيوب قد تجهز أخيرًا واستعد للذهاب إلى المسجد. كان على عجلة من أمره؛ فاليوم هو الجمعة، ولا ينبغي على إمام المسجد أن يتأخر على المصلين، خصوصًا في يوم مبارك كهذا. أتت إليه مريم، ابنته الكبرى، حاملة في يدها خرقة مبللة، انحنت تحت قدميه لتلمع حذاءه. قالت مستجلبة رضاه:

"جمعتكم مباركة يا بَهْ."

ابتسم الشيخ أيوب، ومسح على رأسها بلطف:

"الله يبارك فيش يا بنتي."

بعد أن انتهت من تلميع الحذاء رفعت رأسها بمحاذاة ركبتيه وقبلتهما. ثم وقفت وقبلت رأسه، تمامًا كما علمتها أمها أن تفعل. بعدئذٍ ذهبت إلى غرفته مسرعة، وعادت تحمل بردته التي اعتاد على ارتدائها كل جمعة. ساعدته في لبسها. أثنى عليها الشيخ، وقبل أن ينصرف التفت إليها:

"ها.. قولي للحَنَجاء[1] تسير إلى عند الحجة أم إسماعيل."

"ما تسير تفعل؟"

"تقول لها تجي تبسر أمش"،

---

١ في صنعاء يُطلق الحفيد على جدته لقب "حَنَجاء". ويقول: أمي حنجاء. والحنجاء من الحنج. ويقال فلانة تحنج فلان، أي تحبه وتخاف عليه كثيرًا.

"مي؟" رددت بارتياب، ثم سألته: ليش؟ ما لهم؟"

أجاب مُظهرًا استعجاله في الذهاب:

!"ما لها شي.. بس شكلها بتولد اليوم

خرج الشيخ أيوب من البيت كعادته وهو يحرك لسانه ومسبحته بالتسبيح والاستغفار. الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا خمس دقائق. يرتدي ثوبًا أبيض، عمامة بيضاء لم تفقدها السنين لمعانها. كل شيء كما يجب أن يكون، إلا لحيته الكثة التي تتخللها شعرات شيب قليلة، لم تكن ممشطة، لقد نسي بسبب عجالته، لكن لا بأس، لم يغير ذلك من شكله العام، منظره يفرض على الآخرين احترامه؛ فهو إمام المسجد، وسيماه في جبهته من علامة السجود!

بوقار ورزانة الإمام، وملامح شيوخ الدين الصارمة، دخل الشيخ أيوب المسجد، استمع إلى المؤذن وهو يصدع بالتكبير معلنًا عن موعد صلاة الجمعة، ليعتلي هو، بعدئذ، المنبر ويلقي خطبة الجمعة التي جهزها طوال الأسبوع الماضي، بصوته الجهوري ولغته العربية الفصيحة على مسامع ما يزيد على ألفي مصلٍّ.

خلال إلقائه المميز للخطبة لم يكن الشيخ أيوب مطمئن القلب، مستريح البال، وهادئ الأعصاب، كما يعتقد جيرانه في الحي، وكل من رآه في المسجد من الناس، فقد كان يتظاهر بعكس ما يخفيه من بؤس وقلق. القلق من أن يعود إلى البيت وتبشره زوجته بالمولود الجديد، يريده ولدًا، لكنه لا يأمن مكر القدر وحكمته، ولا يعلم ماذا يخبئ له، وربما لا يريد أن يعلم..

كان الشيخ أيوب، في هذا اليوم المبارك، يلقي خطبة الجمعة وهو يفكر في أمر المولود لا سواه، ويسأل نفسه بقلق: "ترى.. ذكرًا سيكون أم أنثى"؟ كان يحاول جاهدًا أن يطمئن نفسه أن الآتي أفضل، وأن الله سيكرمه هذه المرة ويمنّ عليه بما حُرِمَ منه في المرات الثلاث السابقة. رزقه الله قبل ١٦ عامًا بالبنت الأولى، أسماها مريم، تيمنًا بأم المسيح مريم العذراء، وقد فرح بها كثيرًا؛ ربما لأنها كانت أول مولود له. لكنه لم يفرح بخديجة، ابنته الثانية، أما بلقيس فكانت سعادته بها أقل؛ لأنه كان يتوقع قدوم صبي.

انتهى الشيخ أيوب من أداء صلاة الجمعة، وبدأ الناس يتجمعون حوله للثناء عليه والتبرك به، يحيونه ويصافحونه، منهم من يدنو منه ويقبِّل رأسه، باعتباره وليًا من أولياء الله. وعلى اختلاف أعمارهم وأشكالهم، كان كلٌّ يقترب منه سائلاً في نفسه حاجته من الشيخ، فمنهم من كان يطلب البركة، ومن يسأله عن مسألة شرعية ما، وكذلك من يأتي لطلب الفتوى، ومنهم من يطلب منه الدعاء له أو لمريض من أسرته، دون أن يدركوا أن الشيخ لم يستطع الدعاء لنفسه حتى.

يتكرر هذا المشهد كثيرًا. عند خروجه من البيت، أو وهو يمشي في الشارع، أو على متن سيارته. يأتيه الناس بالحفاوة نفسها، وقد نال الحظ والكثير من السعادة لمحبة الناس وتوقيرهم له، إلا أن الإنسان قد ينال كل شيء إلا الشيء الذي يريده..

عاد إلى منزله، وعند الباب وقف مترددًا للحظات قبل أن يدير المفتاح ويدخل. سمع صوت زوجته، أم مريم، وهي تصرخ باكية من ألم الولادة،

فبدأ قلبه ينقبض وشعر فجأة بأنه لا يقوى على الوقوف؛ بفعل التوتر والخوف المسيطرين عليه. جلس على الأريكة الحمراء وبريبة، وقلق، وخوف، كان ينظر إلى باب الغرفة التي تُجرى داخلها عملية الولادة. يترقب بصمت، ويتحيَّن لحظة سماعه لصوت البكاء من داخلها، ذلك البكاء الذي ألف سماعه لثلاث مرات سابقة.

كان قلقًا للغاية، لدرجة جعلته ينظر إلى ما حوله دون أن يرى شيئًا، فلم ينتبه لوجود ابنته الصغرى التي كانت تقف على مقربة منه، لتجلس بعدئذ على الأريكة المقابلة له تراقبه بصمت، وهو يرفع رأسه ويديه إلى السماء ويتمتم: "يا رب يا رحمن يا قادر يا كريم.. ارزقني في هذا اليوم المبارك بولد.. بجاه حبيبك المصطفى، دعوتك، وأنت مجيب دعوة الداعي إذا دعا، أن.."

فرقع أصابعه من التوتر الذي يعتريه وهو يجلس منتظرًا على الأريكة، كان يحدوه أمل صغير في أن يجاب دعاؤه، وتقبل صدقاته التي بذلها للفقراء والمساكين، حتى يحقق الله له مبتغاه. لكن الشك كان متغلغلاً في أعماقه. ما زال صوت زوجته المنتحب يصدح في أرجاء البيت. سرت في أوصاله رعشة لهفة تحوّلت مع مرور الثواني والدقائق إلى رعب حقيقي. وقف لا يدري ماذا يفعل، كان الانتظار عقيمًا، وصعبًا. تطلع إلى ما حوله بغير هدى، ورؤية تائهة النظرات، أحس بوجع يتورّم داخله. مرت ست وأربعون دقيقة، أحصاها منذ عودته إلى البيت، وزوجته لم تلد بعد.

اشتعلت جوارحه وانتفض، ثم تسمر في مكانه لدى سماعه صوت البكاء. تعالت تمتمات النساء داخل تلك الغرفة بذكر الله والصلاة على النبي. لم تنته الزوجة من الولادة بعد، ثمة بكاء آخر انضم إلى الأول، وبعد لحظات خرجت الحنجاء إلى الشيخ أيوب، ومن خلفها مريم ابنته الكبرى:

"مبروك."

قالت له الحنجاء بسعادة مصطنعة وهي تحمل المولود بين يديها ملفوفًا بالملاءة: "هذه المرة توأم."

من خلفها جاءت مريم تحمل المولود الآخر، لكن الشيخ أيوب بقي في حيرته اتسعت حدقات عينيه كأنه لم يفهم، وهز رأسه يحثها على الإيضاح:

"توأم!"

ربما كان ينتظر أن تكمل له العبارة. فطنت إلى الأمر، قربت منه المولود وتابعت باحتفاء:

"أيوة.. توأم.. ثنتين بنات مثل القمارى."

تمنى لو أن الأرض تبتلعه فور سماعه الخبر، لكن أمنيته هذه لم تتحقق، مثل أمنيته في أن تلد زوجته صبيًا، فما كان منه إلا أن حمل توأمه بين يديه، وانخرط معهما في البكاء..

الصحافي

هنا، في اليمن، وتحديدًا في صنعاء، لا يمكن للرجل أن يتزوج بالفتاة التي يُحب، حتى مع قبولها به، فالأمر ليس بيد العاشقين اللذين تمنيا، ذات حلم، أن يقضيا ما تبقى من حياتهما معًا تحت سقف بيت واحد، وإنما في يد التاريخ، لأن العادات والتقاليد التي صنعها الأجداد في زمانهم ظلت إلى هذا العصر تمنع مثل هكذا ارتباط بحجج عنصرية، ولا تجد حرجًا في أن تفنده في خانة المحرمات.

الهاشمي لا يوافق على تزويج ابنته بـ "قبِيلي"، لأسباب متعلقة بالنسل والنسب، وبالمثل لا يقبل القبيلي أن يناسب أو يصاهر المزاينة[٢] ويأبى المزين تزويج ابنته إذا تقدم أحد الأخدام لخطبتها!

٢ المزاينة: جمع كلمة مزين، وهي صفة من ينتمي إلى فئة مجتمعية تمتهن الحلاقة والختان وأعمال تزيين الذكور والإناث عمومًا، ومهن قرع الطبل والطاسة والغناء، وهذه الفئة تندرج ضمن خمس فئات لطبقة مجتمعية تعرف محليًا باسم "بني الخُمس"، وهي تضم بجانب فئة "المزاينة" كلاً من فئات الجزارين أو اللحامين (القصابين)، والقشامين (الخضريين)، والخدم من يخدمون القبيلة في الأتراح والأفراح، والدواشنة (شعراء أو مداحي القبيلة وهجائي خصومها)، والأخيرة هي أرفع فئات هذه الطبقة المجتمعية مكانة لدى أفراد القبيلة، وهناك من يرى أن أصل تسمية الواحد من أفرادها "دوشان" تحوير لمفردة "ذو شأن"، قياسًا بدوره المجتمعي الذي يشمل بجانب مدح القبيلة وهجاء خصومها حفظ وسرد أنساب أفراد القبيلة وتعميم البلاغات والقرارات العامة واتفاقات الصلح والأحكام القبلية العرفية وداعي الحروب والنكف ونداء الإغاثة عند الكوارث، وتجريم التعرض له بأي اعتداء.

أعراف تطبق بصرامة وحزم، باستثناءات قليلة. لسوء الحظ لم يكن صادق من ضمنها، ورغم ذلك فإنه لا يزال يؤمن بالعشق، ولم يتوقف لحظة عن حبه لـ سلا.

منذ أن صارح والدته بأنه عازم على الزواج بسلا، الفتاة الهاشمية، وهو يعاني من سخط والدته عليه، ويدخل معها في حوارات عقيمة ونقاشات لا طائل منها.

كلما عرضت عليه الزواج بـ فردوس، ابنة عمته، أو ملاك، ابنة خاله، قابل عرضها بالرفض، وفي آخر مرة دار بينهما نقاش. علل رفضه بأن زواج الأقارب ينتج عنه مرض الثلاسيميا: "مشتيش عيالي يطلعوا مشوهين". لكنها عنيدة، فلم تكف عن الجدال لأنها، كما تقول، أدرى بمصلحته. "ومصلحتك مش مع البنت هذه، هي هاشمية وأنت قبيلي.. بتفهم؟ ما قد بش أشراف ناسبوا قبايل".

"إلا به". رد عليها بثقة، وأضاف:

"الدكتور إبراهيم ابن الشيخ علي، تزوج هاشمية".

تجيبه وهي تشير بسبابتها إليه:

"قلتها بلسانك، ابن الشيخ علي، وهو دكتور، أما أنت لا أبوك شيخ ولا أنت دكتور".

ابتلع ريقه وعض شفته السفلى قبل أن تضيف:

"أنت صحفي، وما رضيت تقول لأحد أين أنت موظف، قل لي لو سألوك أين بتشتغل، ما عتقول لهم، ها!"

هي تعرف جيدًا أنها بكلامها هذا تستفزه، وقد حشرته في الزاوية! كيف لا وهو ذلك الصحافي الذي إذا ما سأله أحد في أي صحيفة تعمل؟ يتلعثم ويرتبك، فيكذب بقوله: "في صحيفة الرأي الكويتية". وإذا ما جاءه السؤال نفسه من صديق وأراد قول الصدق، ينطق اسم الصحيفة باستحياء.

لم يكن يخجل لأن القبيلي، في عيون البعض، لا يليق به العمل في هذا المجال، بل لأنه يعرف أن الصحيفة التي يعمل لحسابها، ذائعة الصيت، لكنها في الوقت نفسه سيئة السمعة لدى فئة المثقفين في البلاد، ومثار سخرية لدى بعض الفئات الأخرى، لكنه لا يزال يشتغل فيها بالحماس نفسه الذي يموج جوارحه حين أتى للعمل فيها للمرة الأولى؛ فهي، مع كل ما سبق، تملك قراءها الأوفياء، وجمهورها الخاص، أولئك الشباب العاطلون عن العمل، والمحبطون، الذين يجدون في الصحيفة مصدر إثارة لعواطفهم، وخيالاتهم المكبوتة في أجسادهم الجامحة بعنفوان الشباب، ذلك الذي لا يشعرون به سوى لدى قراءتهم تلك القصص الواردة فيها.

لا أحد يجاريه في هذا المجال، لديه مخيلة جامحة تساعده في عمله، فيبرع في اختلاق القصص، وبمهارته في السرد، ودأبه الدائم لحبك القصة بذكر أدق التفاصيل، يجبر القارئ على تصديقها. وهذا ما منح صحيفة "الشاهد" صيتها الذائع من بين كل الصحف المحلية المهتمة بالقضايا الاجتماعية والسياسية.

لكنه يخفي حقيقة أن القصص التي رفد بها الصحيفة، طوال فترة عمله، كلها من الخيال، إلا قصة واحدة فقط، كانت قد تسببت في طرده من العمل.

وصلت إليه تلك القصة عبر رسالة ورقية، داخل مظروف أصفر، لم يُكتب عليه اسم المرسل كما ينبغي أن يكون.. وجده على سطح مكتبه في مقر الصحيفة المتواضع. التقطه وعندما همَّ بالذهاب إلى مكتب رئيس التحرير ليستفسر عن هوية الشخص الذي وضع المظروف على مكتبه، أتى إليه أحد زملائه وأخبره أن فتاة شابة، في نهاية العقد الثاني من عمرها، جاءت إلى هنا قبل ربع ساعة. قالت إنها تريد مقابلة المسؤول عن نشر القصص في الصحيفة. أخبرتها أنك غير موجود، وسألتها عن حاجتها فلم تجب. اكتفت بمناولتي المظروف راجية أن أوصله إليك.

أمر كهذا لم يسبق له أن حدث. بدا عليه القلق وهو يفتح المظروف. لسبب ما كانت يداه ترتعشان كأنما يقوم بتفكيك متفجرات، لكن هذا الشعور سرعان ما تلاشى وهو يقرأ الرسالة، وتحول من ريبة إلى اندهاش.

بعد أيام من نشر الصحيفة أول قصة حقيقية يكتبها صادق، أتى إليه رئيس التحرير وأخبره أنه تلقى مكالمة هاتفية من ضابط كبير في الدولة، حدثه فيها بنبرة تهديد، واضعًا إياه بين خيارين أحلاهما، بالنسبة إليه مر: "إما أن تطرد هذا الصحافي أو ستغلق الصحيفة إلى الأبد ونقدمكما للمحاكمة."

مريم

عندما جاءته بالنبأ الكارثة: "أنا حبلى"، تتوسل راجية أن يصلح خطأهما المشترك ويتزوجها، ثار غضبه ورفض بقسوة، مستنكرًا طلبها؛ لأن تحقيقه كما يؤكد "مستحيل."

لم تكن تملك شيئًا سوى الدموع. لكن، حتى تلك الدموع لا تثمر، ولا تساعد في إيجاد الحلول، خصوصًا في مصائب كهذه. عند رؤيتها للشاب يتملص من خطيئة ارتكبها بحقها ما كان أمامها خيار آخر سوى أن تهدده بتدمير حياته:

"سأفضحك." قالت له عاجزة عن مغالبة دموعها: "سأُشهّر بك في الصحف، في الإذاعة، في التلفزيون". تمسح من عينيها هالات السواد السائلة مع الدموع، وتقسم بالله: "لن أسكت."

قالت مريم إنها لن تسكت، لكن الشاب شريكها في الخطيئة أجبرها على السكوت، واقتادها إلى منزل خلف الجبال لا يعرفه أحد. لم تكن تعرف أنها لن تعود إلى أهلها وبيتها مرة أخرى. المنزل الذي احتجزها فيه أشبه بسجن بعيد عن كل شيء كان يربطها بهذا العالم. حاولت الهروب، ولأن السور كبير ومرتفع؛ فشلت. ظلت في ذلك المكان البعيد وحيدة، وما أن اقترب موعد المخاض أتى لها الشاب بممرضة ستتكفل بإجراء عملية الولادة، وأخرى ستعتني بها إلى أن تصبح قادرة على الاعتماد على نفسها. كانت قد كتبت

قصتها هذه في رسالة جهزتها حتى وجدت الفرصة المناسبة، في غياب الشاب، ودست الرسالة في حقيبة الممرضة، وهمست لها أن تقوم بنشر الرسالة على أي صحيفة: "أرجوك.. حياتي بين يديك."

انتظرت أن يأتي الفرج، أكثر من خمس سنوات، دون أن تخبر ابنها عيسى بشيء عن العالم الذي في الخارج، خارج تلك الغرفة الكئيبة.

طفل بائس، محاط بأربعة جدران مثل معتقل في زنزانة أو حبس انفرادي، يقضي أغلب أوقاته في مشاهدة أفلام الكرتون على التلفزيون؛ إذ لم يكن لدى الأم ما تقدمه لابنها سوى تشغيل هذا الجهاز. يتابع أبطاله بصمت، تتشكل في رأسه مشاريع أسئلة يطرحها على والدته حال انتهاء القناة من البث.

لا يملك سوى لعبة جديدة يحصل عليها كل شهر من بابا نويل، وهي الوسيلة الوحيدة التي كان يقضي بها عيسى وقته في التسلية واللعب، لعبة البحث والاختباء في قلب أمه. لم يكن يسعه شيء سوى قلب أمه، ولكن ذلك القلب تنبعث منه رائحة حزن، والحزن، بالنسبة لديه، شيء كريه لا يطاق.

صنع له من ألعابه، بعد أن دمرها ذات لهو، آلة موسيقية متعددة الأصوات، استراحت الأم من صوت سيارة السباق، وسرعان ما عاد الضجيج مجددًا، ولكن هذه المرة بطريقة بيتهوفن!

عجزت مريم عن إخبار عيسى بالقصة الحقيقية. ما الذي حدث معها، أين أبوها وأمها، ومن يكون زوجها، أين هو أبوه؟! استمرت في إخفاء الحقيقة

عنه ومواصلة التزييف، حفاظًا على ابتسامة ابنها وسلامته، وكان ذلك من الحكمة، فلو عرف الطفل ما قاسته أمه، لبكى كما تفعل هي كل ليلة، ولفضَّل الموت على الخروج إلى العالم الخارجي..

منذ خرج إلى هذه الحياة وهو لا يعرف مكانًا حقيقيًا آخر سوى هذه الغرفة. ومن البشر، الذين يراهم فقط في التلفزيون، لم يقابل سوى أمه وشخص يدعى "بابا نويل" يأتي لزيارتهما، في القبو، ليلاً نهاية كل أسبوع ويجلب لهما طعامًا وموادًا غذائية تكفيهم حتى الأسبوع التالي، إضافة إلى لعبة جديدة تختلف عن سابقتها من اللعب. ولأنه لا يملك أحدًا يلهو معه، كانت هذه اللعب هي أصدقاؤه، وكان عيسى يحاول أن يكون مخلصًا ومحافظًا على أصدقائه..

"فرووم" فرووم." تردد هذا الصوت كثيرًا في الليلة التي حصل عيسى فيها من بابا نويل على سيارة تعمل بجهاز لاسلكي، صنع له بفمه صوتًا كان أقرب إلى صوت سيارات الفيراري الرياضية. كان يتخيل نفسه يقود سيارة مثل تلك التي تظهر على التلفزيون، بصوته ذاك كان يقلد صوت محرك السيارة وصوت بوقها في آن. يفعل هذا طوال النهار، وأحيانًا يستمر إلى الليل دون مراعاة لأمه النائمة بجواره. تستيقظ من نومها مرات عديدة وتطلب منه أن يوقف المحرك ويسكت البوق لكنه لم يستجب. ربما لم يسمعها؛ فقد كان زجاج السيارة مرفوعًا!

لا يستطيع عيسى أن يركض ويجري كالأطفال، كانت غرفته بالغة الصغر، بحيث أن المسافة ما بين سريره والحمام والمطبخ، إذا جاز لنا تسميته مطبخًا، ثلاثة أمتار مربعة. لذا، أهمل موهبته في الركض وانصرف للسباحة، هوايته الأخرى، في ذلك البانيو الصغير. وكان في كل مرة يسبح يحطم الرقم القياسي ويفوز بالمركز الأول!

كانت مريم تواجه صعوبة في التعامل مع طفلها الوحيد، ومع كل يوم يمر، ويضاف إلى عمر عيسى، كانت مهمتها تزداد تعقيدًا. أصعب المراحل التي وصل إليها عيسى عندما بدأ يطرح الأسئلة الوجودية التي طرأت في عقل الطفل، الباحث بطبيعته عن الحقيقة، كسؤاله حين قال لأمه المشغولة في المطبخ، ذات يوم، وهو يشدها من ثوبها: "ماما.. ماما."، انتظر حتى تلتفت إليه: "أين كنا قبل مجيئنا إلى هذا العالم؟"، تتأمل وجهه، تفكر وقد تملكها العجب من أسئلة هذا الطفل الفيلسوف: "كنا في العدم". لا تدرك أنها بإجابتها هذه وضعت نفسها في ورطة سؤال آخر إلا حين ينبري لها بالسؤال الأصعب: "وما العدم؟ أين هو؟ وكيف شكله؟". استغرقت مريم في التفكير وهي محتارة في أمرها، دخلت حينئذ في نوبة شرود لم تصحُ منها إلا وقد احترق بين يديها نصف الطعام.

وعلى هذا النحو تقريبًا كان عيسى، في كل يوم، يلجأ إليها، يشاركها التفكير بما يدور في رأسه ويهجم عليها بجيش من الأسئلة، فتحاول إجابته على بعض منها، ولا تملك إزاء البعض الآخر إلا أن تصمت، أو تحاول التنصل من

الموضوع بأن تقترح عليه اللعب، وإذا ما ألح عليها مرارًا، طالبًا إشباع فضوله وإجابته عن سؤال لا تملك له إجابة، قاطعته بصرامة: "عيسى، كف عن الأسئلة، قلت لك يومًا ما ستعرف."

الانتحاري ٥٠١

عبثًا أحاول الهرب من.. وصولاً إلى... ولكن كيف؟! هل من طريقة للتحرر من هذا الحزام الذي يلفني؟ إنه يأبى التخلي عني ومغادرتي. أين أنا الآن؟ لا أدري، كلما وجدت أمامي طريقًا سالكًا سلكته.. أركض هاربًا من الناس، كظبي يطارده جيش من الوحوش المفترسة. أختفي عن أنظار الذين رأوني قبل قليل، خشية أن يلمحني أحد المسلحين ويطلق النار عليَّ، أخيرًا ها أنا ذا في زقاق داخل حي شعبي شوارعه متشعبة. كيف وصلت بهذه السرعة إلى هنا؟ أجلس على عتبة أحد البيوت ألتقط أنفاسي، ألهث كأنني أحتضر. الآن فقط أدركت نتائج التدخين السلبية على لياقتي. التدخين مضر بالصحة، لن أسخر من هذه العبارة بعد الآن. أبحث عن شربة ماء أبل بها ريقًا جف من الخوف، لا شيء هنا سوى أطفال يلعبون بمسدسات الخرز، يصوبونها كلٌّ نحو رأس الآخر.. وددت مناشدتهم: أيها الأطفال صوبوا مسدساتكم المزيفة نحو رأسي، ليضغط كلٌّ منكم على زناده. اقتلوني لأستيقظ من هذا الكابوس، أرجوكم لا طاقة لي في مواصلته. أنا في قمة حيرتي وبؤسي أفكر في لا شيء، إلى أن انطلق ذلك الصوت يخترق أذني اليسرى، مرددًا: "ألو.. الفدائي ٥٠١ هل تسمعني؟"، أضغط بيدي على أذني درءًا لصوت ينخر رأسي كالمنشار، ولا زال الصوت نفسه من حيث لا أدري يردد العبارة نفسها وأنا أسأل نفسي عما أسمع: "فدائي"؟ أتساءل، يكرر، أجيبه بسؤال: "من تكون؟"، يراني الأطفال ساخرين، ربما خمّن واحد منهم وقال وهو يشير نحوي: "إنه مجنون"،

ليتني كنت كذلك. ماذا يفيد العقل ما دام لا يدلني على حل لما أعاني منه؟ والعقل، كما تقول أمي زينة، اليوم فقط تأكدت من مصداقيتها.

أجاب الرجل، بصوت متقطع، سرعان ما اتضح: "ليس المهم من أكون، بل ماذا أريد، لا جواب.. أردف: اصطفاك القدر، اليوم، من بين مئات المجاهدين لتنفيذ العملية الاستشهادية الكبرى والفوز بالشهادة". توقف عن الكلام منتظرًا ردًا لم يأتِ مني. ماذا أقول؟ شخص، في بداية العقد الثاني من عمره، قيل له ستموت بعد قليل، ماذا يتوقع مني هذا الرجل أن أفعل؟ أنفجر ضاحكًا مثلاً؟

لم أجد جوابًا، شيء فيَّ ينفجر باكيًا. ولِمَ لم يختَرِ القَدَر سِواي؟ أقول ودموع، لا يراها، تلمع في عيني وتوشك على السقوط. لا أريد أن أموت.. أتوسل إليه، أشرع بالبكاء كالأبله، غير آبه بنظرات بعض المارة المصوبة نحوي بإشفاق وحيرة، متجاهلاً أصابع أطفال تشير نحوي بسخرية. إنه يبكي.. الرجل، في بلادنا لا يبكي، كما علمونا. لو أنهم علموا ما أخبئ تحت قميصي ما استطاعوا كبح دموعهم. أفكر قبل أن يعود صوت الرجل الغريب إلى سمعي: "لقد اخترناك ولا جدال حول هذا الأمر". صرامته لم تثنني عن الرد بالمثل: "لن أفعل"، فاجأته بإجابتي. "أرفض فعل ذلك". أمسح دمعي من على خدي وكأنني انتصرت عليه، ولكن سرعان ما عاد الخوف إليّ، صرخ بي قائلاً، ما معناه، إن أمامي ستين دقيقة فقط لأصل إلى كلية الشرطة: انتظر حتى يخرج الطلاب من البوابة، انغمس بينهم، وسنقوم بالباقي. قال بأني سأصعد

بضغطة زر إلى الجنة، ومن سيقتل معي مِن طلاب الكلية سيذهبون إلى الجحيم، ولا أدري كيف عرف الرجل بكل هذا مسبقًا؟ أهناك، يا رب، أحد يعلم الغيب سواك؟!

أستعيد تفكيري بعد شرود:

"ماذا لو لم أفعل؟".

فكرت بصوت خفيض، ولكنه كفيل بأن يصل إلى أذن الرجل. قال لي: بغضب مبالغ: "سأجعلك ترى جثة أمك متفحمة فوق أشلاء والدك، وستلقى في الآخرة عذابًا أليمًا، ولك أن تتخيل الباقي".

وبدأ بحديث أشبه بمحاضرة دينية في خطبة جمعة، قائلاً إن من الأفضل لي أن أستشهد في سبيل الله، بدلاً من أن أنفجر في هذا الزقاق وحيدًا، وبذنوب كبيرة ستسوقني في نهاية المطاف إلى الجحيم. "هناك جهاز مفجر عن بعد، فلا تكن أحمق. ليس هذا وحسب، تذكر أيضًا كل الأمور التي ستترتب على موتك بهذه الطريقة، سيكتب اسمك على شريط الأخبار مسبوقًا بـ الإرهابي.. لن يدفنك أحد".

صعقتني كلماته، صدق في ما قاله وهو الكذوب، لن يأبه لي أحد عندما أموت، وقد يلعنونني أيضًا، "لا يهم". أجبته واثقًا: "يكفي أن والديَّ يعرفان ابنهما جيدًا." أنا أعني ما أقول، وهو أيضًا لم يتردد في الرد: "أعلم، حتى وإن أنت اعترفت لأمك فإن أمك، من بين كل الناس، لن تصدقك، لأنها أم.. لكن ألم تفكر في مصيرها، وأبوك، بعد أن تُقتل في هذا الزقاق وحدك متفجرًا

بالحزام؟". ظننت أنه يتحدث عن مشاعرهم إن هم فجعوا بمقتل ابنهم البكر، أدركت بعدئذ أني أخطأت التقدير. فالرجل حسبها على نحو مغاير: "ستقوم السلطات باعتقال أبيك، وربما يفعلون الشيء نفسه مع أمك، وكل من لهم علاقة بك. سيتم التحقيق مع كل هؤلاء في الأمن القومي إما بتهمة التستر على إرهابي، وإما بتهمة الارتباط به، وتهم أخرى لم يسمعوا بها من قبل. وإن لم تعلم فإن أحدًا منهم، وقتئذ، لن يسلم مهما تفاءلوا، فلا تنفع الوساطات في ذلك المكان، وهو المكان الوحيد الذي إذا دخله شخص سليم بتهمة ما، لا يخرج منه إلا وهو معاق، حتى وإن كان بريئًا.. ولك أن تتخيل كم سيكون الوضع سيئًا هناك إن تعلق الأمر بالإرهاب".

بعد كل هذا الكلام يسأل:

"هل فهمت؟"

لا أُجيب. يُضيف:

"مضى من الوقت خمس دقائق.. سأتواصل معك حالما تصل إلى هناك.

لم يترك لي فرصة المساومة. اختتم:

"لا تتأخر".

وهل يتأخر أحد على الموت؟

إنه يراقب تحركاتي كلها، لا أعرف كيف، ربما زرع في الحزام جهاز تعقب، أو في جسدي، أو أن هناك من يلاحقني ويخبره أين أنا أولاً بأول. ركبت دراجة

نارية أخبرت سائقها بالعنوان الذي أود الذهاب إليه: المنزل. لكن ما إن تجاوز ذلك الشارع حتى صرخ: الفدائي ٥٠١، توقف حالاً، اخترق الصوت طبلة أذني، مجددًا شعرت كأن أحدًا ينخر رأسي بسيخ من حديد، كدتُ أسقط من الدراجة: "أمامك عشر ثوانٍ لتتوقف". ذلك يعني أنني سأموت في الثانية الحادية عشرة. ضربت على كتف السائق آمرًا إياه أن يتوقف. سأل: "ماذا هناك؟" لم أجبه سوى بالضرب على كتفه. ربما لا يدرك ما يُقال وراءه. أضاف الصوت بغضب: "نحن لا نلعب". قلتُ بخوف: أعرف ذلك. قال: "يجب أن تعرف أيضًا أنني لا أحذر أحدًا مرتين، ولا تتوقع مني بعد هذا التحذير إلا أن أجمع أشلاءك المتفحمة وأطعمها للكلاب".

ارتعدت من الخوف أرجوه وأتوسل إليه بأن يسمح لي برؤية أمي للمرة الأخيرة. التفت السائق إليَّ يراني بسخرية كأنني مجنون. بَقي على حاله يتأملني وبقي الصوت في أذني يتردد: هل تريد أن ينفجر الحزام بأمك أيضًا؟ أردف: "ألن تهرع أمك لاحتضانك وعناقك حالما تذهب وتقف أمامها لتوديعها؟"، لم أفكر في هذا لكنني الآن أدركت خطورة الأمر، إن ودعت أمي وأشعرتها بأنني حزين قطعًا لن تتركني دون عناق. يا لها من مأساة، حتى العناق الذي لطالما كنت لا أحبذه أصبح في هذه اللحظات يساوي حياة شخصين. استمررت في إلحاحي على الرجل بأن يسمح لي حتى بمهاتفتها كأمنية أخيرة تحقق لي قبل مماتي، لكن بلا جدوى.

"لا وقت لدينا."

قال الرجل الغريب.

"سيخرج الطلاب بعد نصف ساعة."

"!."ولكن

اختفى الصوت.

أتخيله يجلس وأمامه شاشة إلكترونية تخبره أين أنا! أنا الذي أظهر فيها على شكل نقطة حمراء متوهجة. وصلت إلى هناك ونزلت من على الدراجة من دون أن أدفع له ريالاً. اكتفيت بالمضي قدمًا دون أن ألتفت إليه، واكتفى هو بالشتيمة والسباب. كنت قد بدأت أشعر بالطمأنينة إزاء رؤيتي بوابة الكلية لم تُفتح، لا يوجد طلاب، إذًا لن أموت بينهم. لولا أن صوت الرجل الغريب عاد فجأة وأخرجني من الطمأنينة إلى الرعب: هل أنت جاهز؟ تقلصت أمعائي خوفًا، تسارعت دقات قلبي وبدأ يخفق بقوة كما لو أنه يريد الخروج من صدري. "لا." صرخت متوسلاً بأن يعدل عن قراره: "لا أريد أن أموت". "مُتْ في سبيل الله." "الانتحار حرام، قلتُ له. أجابني قائلاً إن هذا جهاد لإعلاء كلمة الله. "لِمَ لا تفعلها أنت؟" قلتُ له، "ما دمتَ تؤمن بأن هذا الفعل جهاد". صَمتَ لبرهة قبل أن يردّ: "أنا أفعل"، كيف؟ ها أنت ذا حيّ تُرزق". جادلني بالقول إن ما يقوم به أكثر صعوبة من القيام بعملية انتحارية، "هراء". قاطعته: "ليس هنالك ما هو أصعب من أن تقرر أن تقتل نفسك". "سأقتلك أنا". قال بغضب، "بضغطة زر واحدة ستتحول إلى قطع لحم منتهية الصلاحية".

أعرف جيدًا أنه يريد مني تنفيذ العملية بين الطلاب لإسقاط أكثر عدد ممكن منهم، لا كما كان يحاول أن يقنعني بتمسكه بالخيار الأضعف لديه أن يفجرني في غير الهدف المنشود، رغم ذلك لم أتوقف عن التوسل إليه بألا يفعلها ويفجرني. بينما كان هو يمسك بالعصا من منتصفها بمهارة، يهددني تارة، ويحاول إقناعي بالتي هي أحسن تارة أخرى، لجأ إلى القرآن الكريم ومن بين ٦٢٣٦ آية اختار أن يتلو لي آية من سورة آل عمران، باعتقاده أنها قد تقنعني بما لم أقتنع به: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون". تلاها مرة واثنتين، وراح يشرح لي معاني الآية قائلاً إنني لن أموت إن فعلتها بين الطلاب، وإنما سأكون عند الله حيًا أرزق. غير أنني لم أستسلم، وما كنت لأفعلها، فالتمسك بالحياة وحب البقاء فيها غريزة في قلب كل إنسان سوي، وأنا كنتُ إنسانًا سويًّا، على الأقل حتى تلك اللحظة، أعاود ترديد إجابتي تلك: "لا أريد أن أموت.. لا أريد". أسمعني آية أخرى تحرض على قتل المرتدين، "إنهم مرتدون"، "وما شأني بهم؟". صرخت والدموع تنهمر من عيني: "فليذهبوا إلى الجحيم، الأمر متعلق بي: أنا.. أنا لا أريد أن أموت"، قلت له باكيا: "أريد أن أعيش". لم أسمع من الرجل كلمة أخرى، أطبق الصمت علينا قبل أن أرجوه بصوت يغلفه اليأس بأن يعطيني فرصة لأعيش: "أرجوك.. سأفعل أي شيء آخر تأمرني به مهما كان." خرجت من شفتي هذه العبارة.

سأل: "مهما كان؟"

أخيرًا استجاب لرغبتي.

هتفتُ:

"نعم.. نعم.. مهما كان".

تردد قبل أن يبشرني:

"حسنًا.. لك ذلك."

المصعد

تفحص الملحد والطبيبة هاتفيهما. كلٌّ تفقد هاتفه المحمول، وقبل أن يكتشفوا غياب الإشارة، اهتز المصعد بعنف فجأة. إذا لم يكن زلزالاً ضرب العاصمة فإن الأرجح أن تكون الهزة بفعل صاروخ ضرب المبنى، وهذا أقرب إلى ما قالته الطبيبة. كانت الهزة قوية سقط على أثرها الطفل محدثًا ارتطامًا قويًا. تعالى صوت الملتحي بالاستغفار، وصرخة مدوية من الطبيبة صاحبت انطفاء ضوء المصعد، ارتبك كلٌّ في مكانه لا أحد يعلم ما الذي يحدث. ما زالت الطبيبة تصرخ بهستيريا مرعبة، لكنها لم تخف الطفل. قلقنا كثيرًا بشأنها، ورحنا نسأل بعضنا عما يجري، ولكن لا إجابة. سألت الطبيبة:

"ما بك؟ لماذا تبكين؟".

لا جواب، لم نسمع منها ما يشفي صدورنا وينهي حيرتنا. ما زالت على حالها، تصرخ كأن يدًا تحاول خنقها. استعاد الطفل توازنه ونهض بعد سقوطه سريعًا، لم أعد أرى شيئًا سواه، لكنني أقدر بوضوح تام على سماع كل شيء. أضاء وجه الطفل بجوار الطبيبة باللون الأحمر، وكان يمسك بساعته أو يضغط على زر ما، مع الضوء توقفت الطبيبة، رويدًا رويدًا، عن النحيب. اختفاء النحيب ألجم بقية الأصوات، وساد في المصعد صمت كئيب، لم يكن الضوء قويًا، لكنه كان كفيلاً بإسكات الطبيبة. رأيتها دنت من الطفل بعد أن هدأت من روعها، وقربت وجهها إلى وجهه، وأصبح بإمكاني رؤية وجه

الطفل السعيد بالتفات الأنظار إليه، ووجه الطبيبة الشاحب والمصفرّ. كانت هالات السواد تتلاشى وتسيل مع بقية الدموع المنهمرة على خدها، وكانت علامات الذعر واضحة على ملامح وجهها.

"فوبيا"!

قال الصحافي وأضاف:

"فوبيا الظلام."

لم أفهم دلالة ما قال، ولا هم فهموا. رأيته وهو يستلُّ من جيبه هاتفه المحمول، ضغط بعشوائية عليه، أضاء بنور الشاشة، وصوب الهاتف نحوها، وأمر البقية بفعل الأمر نفسه، أخرجوا هواتفهم وأضاؤوها عداي. عاد الضوء إلى المصعد، وإن بأقل مما كان.. يكفي أنه أعاد الطبيبة لطبيعتها. مدَّ المُلحد يده لها بقارورة ماء، بعد أن فتح غطاءها:

"اشربي". قال لها بلطف.

ترددت قليلاً ثم أخذتها بيد مرتعشة، بدأت بالشرب كالأطفال. ثلث من الماء إلى فمها، وثلثان تسرب حول شفتيها، ذقنها، إلى أن تساقط على قميصها الأبيض وشكَّل فيها بقعًا رمادية اللون. روت عطشها، نظرت إليه بامتنان وهي تعيد له قارورة الماء وتشكره على كرمه.. ربتت على كتفي الطفل وهمست في أذنه تبالغ في شكره:

"أنقذتني أيها البطل.. أشكرك".

التفت إليها مبتسمًا وقال بثقة:

"وكذلك سأنقذ أمي".

أمك؟" رددت مستغربة. أجاب مؤكدًا:

"نعم أمي". أشار بحبور إلى الساعة: "التي أهدتني هذه الساعة".

بعد نوبة شرود طويلة، تنبهت لمسألة الوقت:

"كم الساعة الآن؟"

قلت موجهًا سؤالي للصحافي، الأقرب إليّ من الآخرين، نظر الأخير إليَّ يستهجن غرابة السؤال، وأشار إلى الساعة التي أضعها في يدي، معيدًا السؤال نفسه:

"أخبرنا أنت."

هززت رأسي بالنفي، آسفًا، ولم يملك أحد منهم تفسيرًا مقنعًا للزفرة التي أصدرتها قبل أن أجيب:

"لا أدري".

رفع الصحافي حاجبيه مستغربًا، فكان عليَّ توضيح الأمر، استدركت:

"الساعة لديَّ تعمل بالعد التنازلي".

عقد الجميع حواجبهم في حيرة من الأمر، بينما لاحظت الصحافي سارع بتدوين ملاحظة ما على أوراقه. جاءني الرد من الملتحي، الذي نظر إلى ساعته ورفع رأسه يجيب:

"الثانية عشرة إلا ربعًا".

نظرت بالمقابل إلى الساعة التي في يدي، وهي تعمل بالعد التنازلي، ورأيت كل ثانية تمر وتأخذ معها أملي في النجاة.. نجاة أمي.. وهؤلاء.

الملحد

اليوم يصادف عيد ميلاد سعاد، أخت عبدالله الوحيدة، وهذه مناسبة كانت إلى وقت قريب تدعو للسعادة والفرح. وفي مثل هذا اليوم كانت تقام حفلة لميلادها المجيد، تطفئ فيها سعاد شموع الماضي، بما حمل من هموم، وتضيء مصابيح المستقبل، بما يحمله من أمل. غير أن عبدالله يعرف جيدًا أن كل هذا لن يحدث هذا العام، ولا حتى في العام الذي يليه لن تطفئ الشموع مرة أخرى، لقد انطفأت إلى الأبد، واستحالت إلى ذكرى كئيبة ومدعاة للحزن.

لم يبكِ عبدالله أكثر من والدته التي استمرت في البكاء لأيام متواصلة لفرط حزنها على فقدان ابنتها الوحيدة، ولم يصب العمى إحدى عينيه للسبب نفسه، كما هو الحال مع والده، لكنه عانى حالة من الاكتئاب، فاعتزل كل شيء، حتى رؤية أصدقائه. بقي حبيس الجدران في غرفته لأشهر، شأنه شأن قلبه الذي حبس نفسه في دائرة الإحساس بالأسى، والشعور بالندم.

كان لرحيلها أثر واضح عليه، تركت بموتها فراغًا شاسعًا في حياته، لم يتأتَ لأحد بعدها أن يملأه، حتى "مريم"، الفتاة التي يحب، رغم أنها فعلت ما بوسعها لتمسح عن قلبه الحزن، وتملأ ذلك الفراغ بحبها واهتمامها الشديد به، إلا أنها لم تستطع، كان ذلك الفراغ كبيرًا جدًا بحجم حزنه، وأكبر.

ربما كان شعوره بالشوق إليها هو الذي دفعه في تلك الليلة للبحث عن ألبوم الصور الكبير الذي يحتفظون فيه بذكرياتهم وأهم اللحظات التي يعيشونها.

اغرورقت عيناه وهو يتصفح الألبوم ويرى سعاد دائمة الابتسام في كل صورها، أحزنه التفكير في مسألة كيف أن البشر، بمجرد أن تضرب قلوبهم عن العمل، يتحولون من أجساد تضج بالحياة إلى ورقة ملونة توضع في ألبوم صور مثل هذا، أو داخل إطار مبروز يعلق على الجدار، صور لا يميزها أي شيء سوى أن صاحبها ينظر فقط إلى الفراغ! يراها في بعض الصور مبتسمة وضاحكة، وفي إحدى الصور تظهر سعاد وهي نائمة في سريرها كالملاك، تذكره بما يتمنى نسيانه، نومها الأخير والأبدي، يوم رحيلها إلى السماء، وتستحضر في داخله شعوره القاتل بذنب إزاء خطأ ارتكبه في الماضي لا يقدر على إصلاحه في الحاضر، ولا حتى في المستقبل.

لم يدم الوضع على ما هو عليه طويلاً، أصبح عبدالله بعد ذلك من الناس الذين يرتادون المقابر ليلاً، ليس لأنه مصاب بال "نيكروفيليا"[٣]، كما يظن السفياني، حارس المقبرة، وإنما لأن سعاد أخته التي انتهت حياتها فجأة بسبب حماقته أصبحت نائمة هناك منذ وفاتها، وهو يخيل إليه أنها تناديه ليلاً، فكان كلما سمع صدى ذلك النداء يخرج من البيت، خلسة في منتصف الليل، ويذهب إلى مقبرة خزيمة، وحجته في ذلك كي يحرس سعاد. أخبرته في المنام، قبل أن تنام إلى الأبد، أنها بحاجة إليه، أن يكون بقربها؛ لأنه يعرف أنها تخاف من الأشباح.

٣جماع الأموات (نيكروفيليا) هو انجذاب جنسي إلى الجثث، ويصنف على أنه أحد أنواع الانتكاس النوعي، بحسب الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية.

الحزن والندم اللذان يعصران قلبه ليل نهار أثرا فيه بشكل مؤسف، رغم أن هذا أمر متوقع في حالة كالتي هو فيها، فأن تكون سببًا في موت أحدهم ليس بالأمر الهين، فكيف يكون الأمر إذا تسبب المرء في موت من يحب؟

في أحد تلك الأيام، وتحديدًا في الصباح، سمع عبدالله صوت الراديو يصدح بالقرآن، كانت آيات من سورة البقرة، وقد شاء القدر أن تكون الآية التي صدح بها القاري عندئذ هي آية معجزة المسيح عيسى ابن مريم بإحياء الموتى.

"السيد المسيح عيسى ابن مريم، عليك السلام.. وبعد: لم يُذكر في التاريخ أحد من البشر سواك باستطاعته إحياء الموتى. أنا الإنسان الفقير من الحب والغني بالأوجاع، أحببت أختي ولكني أرعبتها من باب المزاح فماتت، قل لي سيدي المسيح متى تتكرم بالعودة إلى الأرض مجددًا، متى تنزل من السماء لإحيائها؟ أريد أن أرى كيف تحيي الموتى، أنا مؤمن بك ولكن يجب أن تفعلها، ليطمئن قلبي".

الملتحي

بدأ الشيخ أيوب، في الآونة الأخيرة، يتجنب الاقتراب من زوجته، يومًا بعد يوم، ثم ابتعد منها أكثر وهجرها في الفراش، ليس لمرض ألَمَّ به، وإنما لأنه لم يشأ أن يكرر فعلته فيلقي عليها العقاب نفسه للمرة الرابعة.

لاحظت أم مريم ذلك، وفي إحدى الليالي شديدة البرد انتظرته حتى انتهى من البرنامج، عاد إلى المنزل، وبعد أن تناول العشاء ارتدى بجامة نومه واستلقى على الفراش، استلقت هي بجواره وقالت له بغنج لم تمارسه يومًا:

"قد لي منكم خيرات يا شيخ!"

نظر إليها مستهجنًا نغمة صوتها المموسقة والغريبة عليه.

"تذكروا زمان في شهر العسل، لما قلتوا لي إن نفسكم تملأوا البيت عيال"؟

"أيوة.. كان نفسي أملأ البيت عيال، مش بنات".

غالبت دموعها وقالت، باستحياء:

"ذلحين قوموا يا شيخ افعلوا اللي عليكم، والله كريم".

لم يُبدِ لكلامها أي اهتمام، غطى نفسه باللحاف ونام، استحالت نظرته إليها نظرة تشاؤم وخذلان، وأصبح كلامها اللطيف ثقيلاً على قلبه، فمهما كان كلامها ناعمًا وصادقًا، ومهما كانت مطيعة له وكاملة في كل شيء، فستظل بالنسبة له ناقصة، كيف لا، وهي لم تنجب له ولدًا.

ضاق الشيخ ذرعًا بفشل زوجته المتكرر في تحقيق أمنيته، صار يكره حتى الدخول إلى منزله، كان يصَعُب عليه رؤية بيته يكتظ بالإناث من دون أن يكون فيه ولد واحد، واحد فقط، يحمل اسمه ويرثه من بعده. عندها لم يتجشم عناء مداراة مشاعره التي تغيرت تجاهها لذاك السبب، وتحولت بفعل خيبة الأمل المتكررة إلى رغبة عارمة في الزواج بأخرى.

منذ وضعت مولودتها الأخيرة وأم مريم تفكر باستياء فيما يؤرق زوجها، حتى صار الأمر يؤرقها هي الأخرى، وعلى مدى أشهر وهي تدعو الله وتتوسل إليه باكية بأن يرزقها ولدًا ليرضى عنها زوجها. كان في نفسها شيء تخشى حدوثه. وفي إحدى ليالي الشتاء حدث ما كانت تخشاه. تجاسر الشيخ أيوب وأخبرها بما كان يخطط له منذ شهور:

"سأتزوج الليلة".

قالها هكذا فجأة، دون تمهيد وبلا مقدمات. وضعت كفيها على فمها لتمنع خروج وابل من العبارات المدججة باللوم والعتاب. لم تنطق، ولم تبد أي اعتراض، لم تصرح له بما يحترق في قلبها، لكن عينيها فعلتا.

بعدما انصرف الشيخ من الغرفة وصفق الباب خلفه، أدركت أن الأوان قد فات للتمني، فدفنت رأسها في الوسادة، وخبأت فيها دموعها الغزيرة وصوت بكائها المبحوح.

غادر الشيخ أيوب المنزل، وفي قلبه غصة للدموع التي رآها تلمع في عينيها. غادر تاركًا وراءه زوجته التي لم تتركه يومًا، وذهب ليحقق هدفه في فراش آخر.

بعد فترة قصيرة من زواجه بالمرأة الجديدة، وبعد ما يسمى شهر العسل، عاد الشيخ أيوب للنوم في منزله من جديد، ولم يكن على دراية بفظاعة ما سيراه لدى عودته إلى أهله ذلك اليوم. كان يجهل مدى الضرر الذي خلفه زواجه، وما ترتب عليه من غياب، على بناته، وعلى قلب زوجته أم مريم على وجه الخصوص، لأنه رحل والأمور على ما يرام، واعتقدت أنها ستظل كذلك إلى أن يعود.

دخل إلى البيت خلسة، وكانت الساعة تشير إلى أن الليل قد انتصف، فلم يكن في الصالة أحد يلاحظ دخوله ليستقبله. الجميع نيام، أو يتظاهرن. ما أن دلف غرفة النوم حتى اجتاحه شعور غريب. رأى منظرًا لم يألفه، كانت الغرفة تعج بالفوضى، كل شيء بدا أنه في غير موضعه، ولولا صورته المعلقة على الجدار لظن أنه في الغرفة الخطأ. لاحظ انكسار المرآة وقد تناثر زجاجها في الغرفة وتحول بعض منه إلى أداة قتل، وكان بوسعه سماع نشيج زوجته تحت الوسادة. اقترب منها، ثم جلس بجوارها وهو يربت على ظهرها ويتمتم باسمها، ولما أفاقت وأحست بيده التي تربت على ظهرها، التفتت إليه. احتضنته بحركة عفوية سريعة وهي تبكي ثم تمسح عينيها، تغمضهما وتفتحهما غير مصدقة بأنه عاد إليها.

"المرآة مكسورة؟"

تحسس رأسها بين يديه فأجابت وهي تبتسم بحزن:

"أنا فعلت ذلك".

ولما سألها عن السبب أجابت:

"أحب أن تكون هكذا، مثلي".

لم يفهم شيئًا من إجابتها، رآها وهي تنهض من السرير بعد أن حررت رأسها من يده، وقفت أمام ما تبقى من المرآة، قالت:

"كانت تجعلني أبدو سعيدة، وأنا في غيابك لم أكن كذلك".

لم تدمع عيناه، لكن الشيخ بقلبه، فعل. واصلت:

"أما الآن فهي تظهرني مكسورة، كما أنا".

منذ تلك الليلة وهو يبيت ليلة هنا وأخرى هناك، في سبيل العدل بين الزوجتين، لكنه، بالمقابل، لم يكن عادلاً في جوانب أخرى، أولها المعاشرة والفراش، وعلى كل حال فإن الوضع هذا لم يستمر طويلاً. دارت الأيام وتعاقبت الشهور، وأصبح الشيخ أيوب مواظبًا على الشقة الجديدة التي سكن فيها مع زوجته الثانية بشكل شبه يومي، ثم غاب عن منزله الأول بشكل كامل، وكلف أحد العاملين لديه بمهمة توفير حاجات أسرته هناك، بعد أن أتاه النبأ السار من زوجته الثانية، عشية يوم ماطر. قالت له وعلى محياها ملامح الفرح:

"أنا حامل".

الصحافي

احتوت الرسالة على قصة لفتاة شابة في الثامنة عشرة من عمرها، تدرس في الصف الثالث من المرحلة الثانوية. قبل أن تدخل الامتحانات وتتخرج وقعت في شراك شاب أكبر منها بثلاث سنوات ينتمي لإحدى أشهر الأسر في البلاد، ووالده كما عرفت، في وقت لاحق، شخصية عسكرية نافذة. ظل يلاحقها بسيارته الـ بي إم دبليو، لفترة تزيد على العام، ولا تستريح من عبارات الغزل التي تقع على سمعها بصوته إلا عندما تصل إلى المدرسة، وإلى أن تخرج منها يكون هو بانتظارها ليلاحقها بنظراته وكلماته طوال طريق عودتها إلى المنزل.

لم تكن الفتاة، في بداية الأمر، تعطي اهتمامًا لهذا الفتى الثري، كانت تحب شابًا آخر، لكنه أهملها في الفترة الأخيرة بسبب طارئ حدث معه، وكانت هي، في تلك الأيام، كما تقول في رسالتها تعاني من الوحدة، وهذا أمرٌ أضعفها أمام الفتى ذي السيارة الفاخرة، ذلك اليوم، حين استسلمت له، وتمكن منها أخيرًا. لامست كلماته اللطيفة ونظراته الجذابة شغاف قلبها، وجرت الأمور بعدئذ كما لم تتوقع، نظرة، فكلمة، فحوار، فلقاء، ثم حدث ما حدث.

لم يحرمها هذا الشاب من شيء، فهو يملك كل شيء تتمناه أي فتاة. استمرت في علاقتها معه وهي مستمتعة تقريبًا بكل لحظة، حتى ذلك اليوم حين اكتشفت أنها حُبلى. صُعِقَت لهول المفاجأة، لم يخطر في بالها أنها قد تواجه أمرًا

كهذا في حياتها، كيف وهي الفتاة الملتزمة، ابنة فضيلة الشيخ العلّامة، الذي تشير الأصابع إليه بإجلال وتقدير، وربما بتقديس أيضًا. ماذا لو عرف؟ لن ينقذها من الموت أحد. هرعت في اليوم التالي وأخبرت شريكها في الإثم بأنها حبلى منه، وحين حاول التملص توعدت بفضحه، ولأنه ابن فلان الفلاني فقد خاف من انتشار خبر كهذا من شأنه أن يشوه سمعة والده ويؤثر على منصبه. لم يجد حلاً آخر سوى اختطافها في سيارته وأخذها إلى مكان بعيد لا نوافذ فيه سوى نافذة صغيرة أعلى الغرفة، يسمح من خلاله لأشعة الشمس بالدخول لمكان أشبه بمخزن تحت الأرض، وقال لها: سنعيش هنا، أنا وأنت.

"والطفل؟".

سألته وهي تطوق بطنها بيديها بشكل بيضاوي. أجاب:

"والطفل أيضًا سيعيش هنا".

تخيلت الأمر سريعًا فطرأ على بالها سؤال آخر:

"إلى متى؟"

سألته والحيرة تخنق تفكيرها، لكن الشاب بحسب قول الفتاة في الرسالة، احتفظ بالإجابة لنفسه، ولم يرد على السؤال حتى اللحظة، لحظة كتابة الرسالة.

في الرسالة ذاتها، ذكرت الضحية اسم المختطف كاملاً، ولا يوجد أحد في هذه البلاد إلا ويعرفه. لكن أحدًا لا يعرف ماذا فعل ابنه الوحيد.. أراد صادق أن يؤدي هذه المرة دور المنقذ، ويخرج الفتاة من القبو أو المكان الذي

سُجنت فيه. أجرى اتصالاته مع المصادر التي من شأنها أن تساعده في مسألة البحث، وبدأ بالتحقيق حول العقارات التي يملكها هذا المسؤول، والد الخاطف، لأن الضحية، كما يعتقد صادق، لا بد أن تكون قابعة في أحد تلك العقارات. وخلال عملية البحث ركز صادق على العقارات التي تحتوي على بدرومات، أو مخازن تحت الأرض، أماكن لا تدخل إليها الشمس. بعد بحث مضنٍ وجد صادق من بين ٣٩ عقارًا ما بين بيوت وفنادق، مزارع كبيرة، وقصور، وجد ثلاثة بيوت خاصة بها مخازن تحت الأرض، اثنان منها تخبأ فيها الأسلحة، والثالث المتبقي لا يُعرف ما فيه.

"وأيش ناوي تفعل؟"

سألته سلا، بعدما حدثها عن الأمر قال:

"بتابع القضية وأكشف المستور.."

"والبنت؟! ما فكرت في مصيرها؟"

"ما قصدش؟"

"كيف بيكون وضعها عند أهلها بعدما تكشف القضية للرأي العام؟"

كان السؤال يستحق التوقف والتفكير الطويل. سرح في التفكير. اختتمت الفتاة تحذره:

"إذا كان اختطفها فعلاً، فأهلها بعد الفضيحة...". صمتت قبل أن تتم: "يمكن يقتلوها."

مريم

جاء الرجل في نهاية الشهر كعادته، ومعه مواد غذائية كانت مريم قد طلبتها منه قبل أسبوع، وبلغه بذلك العسكري الذي يأتي كل يوم ليطمئن على صحتهما، فاجأها هذه المرة وجاءها بهدية لم تكن لها، بل لعيسى الذي كان في تلك الأثناء نائمًا.

"أين رضوان؟"

سألها عامدًا استفزازها، وهو الأمر الذي لم يحدث. قالت:

"لا أعرف أحدًا بهذا الاسم".

ناولها الهدية:

"أخبريه أنها من أبيه".

تظاهرت أنها لم تسمع كلامه وفتحت الهدية، ولما رأت ما بداخل الصندوق ضحكت ساخرة:

"سيتطلب الأمر أكثر من دب محشو بالقطن لإقناع الطفل بأن أباه لا يزال حيًا، أب لم يعترف أمام الملأ بولده، لا يستحق أن يقال له: بابا."

أبوه لم يعترف به، لذلك ليس عليه أن يعترف بأبيه.. وهل سيظل هكذا بلا اسم يلحق اسمه؟ ما الذي يفعله باسم أبيه؟ هو يعيش في غرفة بمعزل عن العالم، كآدم عليه السلام.

كان اسم عيسى هو الشيء الوحيد الذي اختارته مريم له بمحض إرادتها، عندما سألها: "ولماذا يناديني بابا نويل بـ رضوان؟" جاءه الرد منها بغضب: "لأنه نذل". لم يكن عيسى يدرك سبب تسميتها لذلك الرجل بالنذل، في اليوم نفسه سألها يستوضح معنى الاسم رضوان، ردت عليه، كالعادة، بإجابة غير مفهومة:

"رضوان هو الملاك حارس الجنة".

"حارس الجنة؟"

"نعم"

"وهل أنا كذلك أمي؟"

"نعم.. وقد اختار لك هذا الاسم كي تسمح له أن يدخلها."

"ولماذا لا أسمح له؟ أليس أبي؟!"

قلت لك ليس لك أب، هل فهمت؟ وإذا تجرأ أحدهم يومًا ما وادعى أنه أبوك، فلا تسمح له بالدخول".

لا يزال الأمر غير مفهوم، لم يستوعب عيسى ولم يستسغ مبررًا واحدًا لأن يكون بلا أب، في حين أن جميع الناس في التلفاز يتحدثون عن وجود آباء لهم:

"ولماذا أنا..؟"

سأل أمه وهما في السرير، قبل أن تشرع بحكاية قصة له.

"لماذا ليس لديَّ أب؟"

تظاهرت الأم بالنوم، فيما كرر الطفل سؤاله:

"لماذا أنا الوحيد الذي ليس له أب؟!"

"لست وحدك بلا أب".

قالت أمه بصوت متعب.. التفت إليها يصغي لها بهدوء:

"المسيح، أيضًا، ليس له أب".

سألها عن المسيح من يكون، فأخبرته بأن اسمه عيسى، وأمه مريم، وبدأت تروي له القصة بطريقة تسهل عليه فهمها.

"هو، كما ذكر في الإنجيل، مخلص البشرية".

"وأنا"؟

"أنت مخلصي أنا".

هتف فرحًا يخبرها بأنه سيسحق الأشرار كلهم، لكنه تذكر ما حدث للمسيح في آخر القصة فارتعب وفز يعانق أمه. همس لها:

"سيصلبونني في العالم الخارجي".

"لا تخف.. يقول الله في القرآن إنهم لم يصلبوه".

قبل أن تكمل كلامها قاطعها:

"لو كان لي أب.. يحميني منهم!"

ضمته إليها، مسدت أسفل رأسه تهدئ من روعه قالت بحزن:

"كلانا، في هذه الحياة، ليس له أب"،

غمغمت وهي تشرد بنظرها في الفراغ:

"أبانا الذي في السماء."

الانتحاري ٥٠١

تم إلغاء تلك العملية، وشرع الرجل يشرح لي طبيعة المهمة البديلة، والتي سوف تضمن لي البقاء على قيد الحياة لفترة أطول، كما كنت أتمنى. وبحسب الاتفاق الجديد اقتضت المهمة بأن أستهدف جنود الأمن، وعساكر الدولة، لا تجمعًا لهم، كما كان سيحدث مع طلاب كلية الشرطة، بل فرادى، ويجب عليَّ أن أقتل جنديًا واحدًا كل ٢٤ ساعة، ولي صلاحية اختيار السلاح والطريقة التي أراها مناسبة. غير أن الرجل لم يكتفِ عند هذا الحد، أضاف ملاحظة مهمة، بحسب قوله، كاد ينساها:

"إذا قتلت جنديين اثنين في اليوم نفسه يضاف إلى عمرك ٤٨ ساعة من الحياة".

"هل يمكنني الذهاب إلى البيت؟".

"أترفض قتل المرتدين، وتذهب لقتل أهلك؟".

في تلك اللحظة أدركت مدى عجزي، وكيف أنني قليل الحيلة. حياتي، من الآن فصاعدًا، ستكون بشكل مغاير تمامًا عما كانت عليه. تعين عليَّ تقبل حقيقة أنني لن أستطيع العودة إلى البيت بعد اليوم، على الأقل، ما دام الحزام الناسف يلتف حول خاصرتي.

لم أكن قبل تلك اللحظة أدرك حاجتي للجلوس مع أمي، الحديث معها، مناكفتها في النقاش حول السياسية والدين، وها أنا ذا، وتحديدًا في هذه

الساعة، أتمنى فقط رؤيتها ولو من بعيد، أو احتضانها إن أمكن، ولو لدقيقة واحدة أشعر فيها بالحنان، بالدفء، بالطمأنينة، أمر ربما أصبح تحقيقه من المستحيل، إلا في حالة واحدة فقط، أن أفرك عينيَّ لأفتحهما وأجد نفسي مستلقيًا في غرفتي على سريري الأثير لم أغادره. قلت في نفسي: لا بد أن هذا مجرد كابوس أراه في أحلامي، لقد وجدت نفسي في قلب الحدث فجأة، دون أن أملك أدنى فكرة عما حدث لي قبل ذلك، وهذا تمامًا ما يحدث مع الناس في أحلامهم. رغبة في اختبار الحدس، أغمضت عينيَّ، بضع ثوان، وتمتمت:

"سأعد إلى العشرة ثم أفتحهما".

قمت بالعد إلى الرقم عشرة بعد أن ترددت للحظات، ثم فتحت عينيَّ.. لم أستيقظ من النوم كما كنت آمل، كررت الفعل مرات عديدة لكن بلا جدوى لم يتغير شيء. أدركت حينها أنني مهما حاولت إقناع نفسي بأن ما يحدث لي، ويجري معي، منذ الصباح مجرد كابوس أو أضغاث أحلام، فإنني لا بدّ من أن أواجه الحقيقة يومًا ما، فلا مفر من الحقيقة، لا مفر.

قطعت شوطًا كبيرًا جدًا في المشي، استغرقت ساعتين تقريبًا أفكر في أمر واحد لا سواه: الموت. كيف يمكنني الهروب منه، والمثل المتعارف عليه يتردد في أذني: "يا هارب من الموت، ما من الموت مهرب". لم أشعر بمرور الوقت حتى وصلت أخيرًا إلى شارع المطاعم، في منطقة التحرير وسط العاصمة صنعاء، دخلت مقهى العم مدهش، حيث اعتدت أن آتي كلما شعرت بالضيق والاكتئاب، وكالعادة ساحة المقهى مكتظة بعشرات الزبائن من الشباب

المنتشرين حول طاولاتها، منهم من يدخنون النارجيلة، ويشربون الشاي في آن، وآخرون يكتفون بشرب القهوة بين الفينة والأخرى، من أحاديثهم أمشط بنظري حول المكان باحثًا عن كرسي شاغر، وحين وجدته جلست أنتظر قدوم النادل إليَّ.

نسيت، وأنا منهمك في تأمل وجوه الناس المستمتعين بوقتهم من حولي، أمرًا خطيرًا للغاية، وهو أن وجودي هنا، في هذا المكان، وفي هذه الساعة، وبين هؤلاء الناس، يمكن أن يعجل بانتهاء حياتي قبل أوانها، في حالة قيام الرجل الغريب باستغلال الفرصة والضغط على زر التفجير قد أتسبب بمقتلي، وبسبب حماقتي قد يصبح ثمانون مدنيًا على الأقل، بطرفة عين، في عداد الموتى. خرجت من المقهى قبل أن يأتي النادل بالشاي الذي طلبته، في سبيل الحفاظ على حياة هؤلاء.

منذ تلك اللحظة أصبحت أقيس الأمور بدقة وحذر أكبر. أدركت أن وضعي لا يحتمل الخطأ، توجب عليَّ التخطيط الجيد والتفكير، وبدء حياة جديدة أعتمد فيها على نفسي فقط، وأبتعد عن أهلي وأصدقائي. لا حيلة لي مع هذه القرارات الصارمة، فليس من الممكن أن أعرض حياة أحبائي للخطر، أو أن أورطهم في لعبة هم في غنى عنها.

والآن، وبعد أن انتهى الرجل الغريب من إلقاء التعليمات وشدد على ضرورة ابتداء المهمة من يوم غد، رحت أتمشى في شوارع صنعاء وأنا لا أكف عن مساءلة نفسي: "لماذا أنا؟"، ما الذي جنيته ليحدث معي كل هذا؟ دون أن

أجد إجابة. خرجت من صدري تنهيدة حزن مما يحدث لي، تلاها صوت غرغرة معدتي. إني جائع.. لقد أنساني الخوف جوع بطني، رحت أفتش في جيوبي التي فرغت من المال كما لم تكن يومًا.

ازداد وضعي سوءًا.. وحيدًا كنت أمشي في الشوارع حافيًا، جائعًا، وجيوبي فارغة إلا من محفظة جلد، ماركة، ثمنها يجاوز قيمة ست وجبات، لكن ليس لي فيها ريال واحد.. فكرت في الاقتراض من صديق لي، ولكن خوفي عليه وحرصي على الحفاظ على حياته دفعاني للتراجع والعزوف عن هذه الفكرة، كيف لا وتحذيرات الرجل لا تزال تتردد في أذني.

خطرت عندئذ في رأسي أفكار إبليسية، كان أولها عندما صدعت مآذن صنعاء بالتكبير معلنة عن صلاة الظهر. رجعت بخطواتي إلى مسجد مررت من أمامه، قبل قليل، أثناء انشغالي بالتفكير، لم يعد يصلي في المساجد إلا القليل، والسبب ربما يعود للهجمات الانتحارية التي استهدفت قبل أشهر أكثر من مسجد في صنعاء، وتبناها تنظيم القاعدة الإرهابي: "ما الذي يدفع أحدهم لتفجير نفسه بالعباد، في بيت من بيوت الله؟"، هل يعقل أن يكون... انتظرت بالقرب من المسجد حتى أصبح المصلون في الركعة الثالثة، ووجدتها فرصة مناسبة للدخول، لن يلحظ فعلتي أحد سوى الله. فعلتها، وسرقت حذاءً عسكريًا لم أجد سواه في مقاس قدمي، رغم أني استحسنت منظره في رجلي إلا أني لم أسلم من تأنيب الضمير. لذا، قبل أن أفر بغنيمتي وجهت وجهي شطر القبلة نادمًا، وطلبت من الله المغفرة.

وبالسهولة نفسها تدبرت أمر بطني وأشبعتها وأنا لا أملك في جيبي ثمن كسرة خبز. كانت الخنفساء كفيلة بمساعدتي. دخلت إلى مطعم للمأكولات الشعبية، جلست على طاولة وطلبت ما يملأ معدتي، ولما وصل الطعام، كنت كمن لم ير الأكل من زمن، أكلت بنهم وشراهة ولا أخشى فاتورة الحساب التي وضعها النادل على الطاولة. قبل أن أنتهي من الأكل كان ثمة إبريق شوربة لم أُنهِ شربها، وكان مكانًا جيدًا لغرق الخنفساء فيه. صرخت بأعلى صوت لي، أفتعل غضبًا، وأتظاهر برغبتي بالتقيؤ، حملت الإبريق في يدي والخنفساء غاطسة فيه، وأشهرته في وجه محصل الحسابات، وكانت وسيلة جيدة للحصول على أكل وبرقيات من التوسل والاعتذار، بالمجان.

كنت وقتئذ أفكر في أنني لا أملك مكانًا أبيت فيه الليلة، كان الشارع المكان الوحيد الذي يكون فيه النوم بالمجان، ولكن حتى هذا الخيار لا يوفر لي الأمن.. كنت أكثر حرصًا من أشد المجرمين خطورة في البلاد على الاختباء من أعين الشرطة، فضلاً عن الوقوع في قبضتهم، فأنا ألبس حزامًا ناسفًا من شأنه أن يودي بحياة العشرات، وهذا مبرر كافٍ يدفع رجال الشرطة، مع أفراد اللجان الشعبية، لإطلاق النار عليَّ فور أن يلمحوني به، دون الحاجة إلى تلقي التعليمات من الجهات العليا، فذلك لن يحيلهم إلى التحقيق بسبب قتل مشتبه به، بل قد ينالون، بقتلي، أوسمة شجاعة. لم أتخيل يومًا نفسي وأنا أمد يدي لأيٍّ كان وأتسول إلا اليوم، مجرد تفكير فقط، أما ما فعلته كان مغايرًا بالنسبة لي، كانت السرقة أحب إليَّ من أن أمد يدي للناس، وهذا ما فعلته.

مررت بجوار عجوز تجلس على الرصيف وترتل آيات قرآنية، وكان رزقها من المال كثيرًا مقارنة بباقي المتسولين تحيَّنت اللحظة المناسبة، دسست يدي في حجرها وملأت قبضتي بالنقود، ولم يفلح بكاؤها وتوسلاتها في إقناعي بإرجاع ما أخذته.. هل قسا قلبي.. أم أن الحاجة لا تعرف شيئًا يدعى "أخلاق؟"

كان المال الذي سرقته من العجوز المتسولة كافيًا لدفع تكلفة المبيت في لوكندا لليلة واحدة. بيد أن مشكلة أخرى اعترضت آمالي، حال دخولي لوكندا ليالي الأنس. أخبرت موظف الاستقبال عن رغبتي في المبيت لليلة واحدة، فتح السجل وبدأ بالتدوين: الليلة بـ ٣٠٠ ريال. أخرجت النقود وأعطيته، ولكنه لسوء حظي لم ينس أن يطلب مني بطاقة الهوية، ولكني "نسيتها في البيت". قلت له آسفًا، فأعاد إليَّ نقودي.. "اللي معاهم بيوت ما يرقدوا في الشوارع". قاطعته بغضب قائلاً إن هذا ليس من شأنه، جادلني ودخلت معه في ملاسنة كادت تفضي إلى عراك، هممت بالدخول بالقوة متجاهلاً كلامه فاعترض سبيلي. تعالت أصوات النزلاء وسرعان ما تجمعوا حولنا، احتج شاب مخمور على فعلي، مؤكدًا أن الموظف على حق، وأن أحدًا لا يمكنه الدخول إلا وهو يحمل بطاقة هويته. وافقه آخر بصوت خفيض، كدتُ أعود أدراجي خائبًا لولا أن رجلاً ثلاثينيًا، أعور، صرخ يحثُ الرجل أن يسمح لي بالدخول. خلَّوْه يدخل، يعلم الله كيف حالته." اعترض الرجل وقال إن الأمن أمرهم بعدم قبول أي شخص لا يحمل هوية: "الوضع الأمني

خطير.. والإرهابيون في كل مكان". تعالت الأصوات تؤيد أسباب منعه لي. كان عذر الرجل مقنعًا جدًا، فالوضع خطير فعلاً، غير أن ضحكة مجلجلة صدرت من الأعور، قال وهو يشير إلى وجهي: "قلدك الله، هذا وجه إرهابي؟ ضحك أحدهم، استدرك: لا لحية، لا ثوب، ولا حتى صماطة سوداء.. أخذ من يدي النقود ووضعها في كف صاحب اللوكندا: شلها شل.. مابش إرهابي يلبس بنطلون جينز". وتعالت ضحكات بقية النزلاء.

كانت نظراتي باتجاه الشاب الأسود والاثنين الآخرين، اللذين احتجا على دخولي حادة ومليئة بالحقد، اقتربت من الأعور أشكره على شهامته. اقتعدت سريرًا شاغرًا بالكاد وصلت إليه، كنت متعبًا، خائر القوى أجر خطواتي كسلحفاة، ونمت في تلك الليلة جالسًا، فالنوم ممددًا يعرض حياتي للخطر. قد يلاحظ أحدهم شكل بطني غير الطبيعي، أو قد أكبس على الحزام إذا ما تقلبت على بطني فينفجر. لم تكن لديَّ رغبة في الموت بعد. أسندت ظهري إلى الجدار وأغمضت عينيّ. راودني كابوس مرعب أيقظني من منامي. غير مرة أراني بوجه شاحب أهرب من أناس يلاحقونني بأسلحتهم، أمامي نهر وجثث كثيرة تشكل جسرًا يفضي للضفة الأخرى، أدوس على الجثث ولا أصل بسبب جثة، كلما دست بقدمي عليها غرقت في النهر.

المصعد

تخيلت بقاءهم عالقين في المصعد لمدة طويلة فرأيت وجوههم الهلعة وهم ينتظرون حتفهم! تخيلت صرخاتهم: لا أريد أن أموت.. وحتى إن حاول أحدهم إخفاء هلعه الشديد وإظهار رغبته في العيش فسيفشل في ذلك، ستخونه عيناه ودموعه، أو سيرتجف جسده بشدة، وربما يتشنج في تلك اللحظة، عندما يكون المرء على بعد خطوة من الهلاك ويشعر بدنو الموت منه، لسلبه أغلى ما يملك.

"إلى متى سنبقى عالقين هنا؟" تساءل الانتحاري. وأضاف: "يجب أن نفعل شيئًا."

وافقه الملحد في ذلك:

"يجب أن نرى إذا ما كان يوجد هنا زر أو أي شيء يمكن فتح باب المصعد بواسطته في حالات الطوارئ".

جميع الأزرار والمفاتيح الموجودة في المصعد موسومة بأرقام وأحرف إنجليزية، وذلك دفع الطبيبة لتبادر في المساعدة والبحث مع الملحد عن الزر المطلوب الذي يمكننا تسميته في هذه الحالة بـ "زر النجاة". قالت الطبيبة إنه لم يسبق لها أن علقت في مصعد منذ بدأت العمل في هذا المستشفى. انتهت إلى أن انفتاح باب المصعد متعلق بعودة التيار الكهربائي. بالتالي:

"إنها مسألة وقت فقط".

قالت لنا، بعد أن فتشت مع الملحد في جميع أزرار المصعد، دون أن يجدا الزر المراد.

عزز الملتحي رأيها يطمئننا:

"يجب علينا الانتظار حتى يجد الله لنا مخرجًا".

سخر الملحد مما سمعه:

"إذن، فإن الموت مصيرنا لا محالة!"

قال وهو ينظر إلى عيني الملتحي اللتين تتقدان غضبًا، ثم استل نفسًا عميقًا وقعد على أرضية المصعد ليرتاح من الوقوف. قلده في فعله الصحافي، وأنا، ثم الطفل الذي فعل مثلنا ظنًا منه أننا سنلعب، ولكنه جلس وأدار ظهره لنا، في حين وجه رأسه نحو لوحة الأرقام الإلكترونية في المصعد.

يا لكم من حمقى، فكرت في سري: لو عرفتم ما أخبئ في جعبتي ما ضيعتم لحظة واحدة في الانتظار، وهل من عاقل ينتظر في مكان يعرف أن الموت آتٍ إليه؟!

"وجدته!"

هتف الطفل باحتفاء وقد أصبح منتصبًا أمام لوحة أزرار المصعد. انتبه الآخرون له وفرحوا ببلاهة لما سمعوه، ظنًا منهم أنه قد فعلها حقًا. تجمعوا حوله يسألونه عن الزر الذي يقصد، أشار بالسبابة إلى زر أحمر:

"هنا"

قال لهم بهمس:

"زر العودة إلى الماضي."

انفجر الجميع ضاحكين وهم ينظرون إليه ما بين خيبة أمل وسخرية، باستثنائنا، أمي وأنا. كنت أفكر في الموت بينما كانت هي بجواري تغط في نوم عميق، ولا يصدر منها سوى أنين خفيض لا يُسمع إلا حين يسود الصمت في المصعد. استنفدت الجروح منها طاقتها، وبدا أن ما قامت به الطبيبة قبل قليل هدأ آلامها لبعض الوقت، فقط، لكنه مع ذلك لم يفِ بالغرض تمامًا.

"لا تزال تنزف؟".

قلت للطبيبة، مشيرًا إلى أمي.

لم تفه الطبيبة بكلمة، ربما ليس بيدها شيء أكثر مما فعلت، أردت أن أطمئن على أمي، سألتها، بهمس، وأنا أمسح بلطف على خدها:

"كيف حالك الآن، أماه؟"

صمت مطبق على كل من في المصعد، ولا إجابة من أمي سوى الأنين الخافت.

"نامت من التعب". خمن الصحافي.

أضافت الطبيبة: "وربما فقدت وعيها بسبب قلة السكر في دمها".

سألتها:

وهل يشكل هذا خطرًا على حياتها؟

أجابت:

"فقط إذا ما استمرت على هذا الحال دون معالجتها، فإنها قد تنزف."

وبترت جملتها بـ:

"حتى.."

تساءلت مرعوبًا:

"حتى ماذا؟"

آسفة، وبصوت حزين، أتمت إجابتها:

"حتى الموت".

الملحد

مرت الأيام، وما زال عبدالله مغمومًا، ينطوي في غرفته ويصدُّ مريم كلما حاولت أن تخرجه من حالة الاكتئاب والحزن المسيطرة عليه منذ فجع بأخته. عندما فشلت مريم في ذلك، ورأت ألَّا فائدة من مساعدته قررت أن تنفصل عنه، بعدها لم تتجشم عناء مداراة مشاعر الكراهية التي غزت قلبها بسبب صده لها، ثم بعد مصارحتها له أنهت علاقتها به نهائيًا. كان يلزمها معه أن تتحلى بصبر الأم، وحنان الأخت، وهي لم تكن كذلك يومًا، كانت مجرد حبيبة، مراهقة، فقط.. لا أكثر ولا أقل!

جافته الراحة، ولم يعد ينام بسلام مثلما كان يفعل قبل الفاجعة. استحالت أحلامه كوابيس تذكره بأخته وما حدث لها بسببه. لم يكن حاله يخفى على والدته المكلومة أيضًا، فقد كانت، كل ليلة، تسمع تلك الصرخات الصادرة من غرفته فتهرع إليه تفتح الباب وتراه يتصبب عرقًا، كأنه ينام تحت شمس الصحراء، والخوف يصبغ وجهه، يلتفت إليها بعينين مفتوحتين على اتساعهما وهو يلهث بشدة، مثل غزال نجا للتو من فك حيوان مفترس.

حاولت والدته الاقتراب منه لمساعدته للخروج من هذه المحنة، وجربت معه شتى الطرق والوسائل، غير أن جميع المساعي وكل تلك المحاولات لم يكتب لها سوى الفشل.

تشاور والداه في أمره بعد أن لاحظا أن ابنهما الوحيد يوشك على الجنون بسبب عزلته المفرطة. خرجا بقرار مفاده أن يذهب الأب ويجلب شيخًا

حافظًا، يقرأ على عبدالله القرآن، ويحاول إقناعه بأن الإفراط في الحزن والاستمرار في العيش بهذه الكآبة، لن يغير من الأمر شيئًا، فالجميع يموت، والحياة تمضي..

في اليوم التالي نفذ الأب ما اتفق عليه مع زوجته، أم عبدالله، وذهب في الصباح إلى الشيخ هزاع، وأخبره بما آلت إليه حالة عبدالله بعد موت سعاد. حدثه قليلاً عن طباع ابنه، كيف كان وكيف أصبح، وما إلى ذلك. ثم طلب منه القدوم معه إلى المنزل والجلوس مع عبدالله قليلاً ومحاولة إخراجه من الحالة التي هو فيها. صعد الشيخ إلى الطابق الثاني، حيث غرفة عبدالله. وقفا أمام الغرفة الموصد بابها من الداخل. قال الأب، بصوت خفيض، وهو يشير بيده إلى المزلاج:

"كما ترى، أغلق بابه في وجهنا، لا يريد رؤية أحد. منذ ماتت سعاد وهو حبيس غرفته، لا يغادرها إلا في الليل عندما نكون قد نمنا، يدخل المطبخ ليفتح الثلاجة ويأخذ بعض الطعام، يأكل ما يسد جوعه ثم يعود إلى غرفته مجددًا، ويغلق على نفسه بالمفتاح."

طرق الأب باب الغرفة يستأذن ابنه الدخول مع الشيخ، وطلب الجلوس معه لبعض الوقت فلم يرد عبدالله. اكتفى بفتح الباب وآثر الصمت لأنه لا يملك شيئًا ليقوله.. كان يحمل في قلبه هموم الدنيا. بدا ذلك في عينيه، غير أن الشيخ هزاع لم يستوعب خطورة حالة عبدالله، ولم يراعِ وضعه النفسي، لأنه ببساطة لم يمر بما مر به الفتى، فكان يلقي عليه نصائح لا تُفرح مكلومًا، ولا

تسر مهمومًا. واستمر في ذلك لوقت طويل، بطريقة أزعجت الشاب وجعلته ينفجر غضبًا، حين قال الشيخ، بطريقة فجة، موبخًا الشاب:

"البكاء للنسوان، وأنت رجَّال."

رفع الشاب رأسه ينظر إلى الشيخ، وارتفع معه صوت الأخير:

"الحزن يومين، ثلاثة أيام، مش أربعة أشهر".

أطبق الشاب على أسنانه بقوة، ازداد غضبه، قبض على قلمه يشخبط على الدفتر بعنف مزق الورق:

"قضاء وقدر يا ولدي.. أمر الله."

قال الشيخ هزاع.

"أمر الله"؟

ردد عبدالله العبارة باستهجان.

أيوة أمر الله، وإفراطك في الحزن هكذا حرام".

بلغ غضب الشاب ذروته، وقبض على قلمه بشكل أقوى، قبل أن يختتم الشيخ:

"محد يعترض على أمر الله ."

لم يدرك الشيخ فداحة ما تفوه به للتو.. رفع عبدالله يده القابضة على القلم إلى الهواء، بلمح البصر، وهوى بها على فخذ الشيخ فانغرس القلم حتى منتصفه،

خرجت من حنجرة الشيخ صرخة ارتجت لها جدران الغرفة، صرخ كأن أحدًا يسلخ جلده حيًا بلا تخدير، استحال وجه الشيخ شاحبًا، وأصبح لونه أزرق، وقبل أن يدخل عليهما الأب ويرى ما حدث، وضع عبدالله سبابة يده اليمنى أمام شفتيه، بينما أغلق باليسرى فم الشيخ ليسكته:

"هششش.. اسكت".

صرخ وهو يحدق في عيني الشيخ بعينين تشتعلان بالغضب. تابع:

"لا تصرخ.. لا تتألم.. لا تبكِ".

أمسك الشاب بالقلم مرة أخرى، ثم انتزعه فشهق الشيخ من الألم، أردف وهو يشير بنظره إلى القلم:

"قدرك أن تطعن بهذا القلم فلا تعترض على حكم الله!"

في اللحظة نفسها فتح الأب باب الغرفة بقوة. صُعق لما رأى الشيخ ينزف، ثم نظر إلى ابنه وصاح:

"ماذا فعلت به!"

رفع عبدالله كتفيه، ورد ببرودة أعصاب:

"مش أنا اللي فعلت."

"من؟!"

التفت عبدالله بنظره إلى الشيخ المعذب بجرحه، وغمغم بصوت خفيض:

"أمر الله !"

الملتحي

تلقى الشيخ أيوب دعوة من قناة الوحدة لاستضافته في برنامج (على المكشوف)، وهو البرنامج الأكثر إثارة ومتابعة على مستوى البلاد، اشتهر فيه المقدم بفتح أكثر الملفات خطورة، ومناقشة أعقد المواضيع الاجتماعية منها والسياسية، دون خوف، وبلا أي تحفظ ومجاملة. فلاقى برنامجه هذا استحسان الكثير من الناس. ورغم أن الشيخ أيوب رفض في البداية قبول الدعوة، متعذرًا بالأجواء السياسية المتوترة في البلد، إلا أنه عدل عن قراره بعد أن ألح المعد عليه، وطمأنه بأن الحوار سيكون بعيدًا عن السياسة، لكنه لم يخبره عن هوية محاوره.

كان الشيخ أيوب قد اعتزل الظهور في وسائل الإعلام هربًا من الكلام في السياسة والوقوع في المحظور، وكانت هذه فرصة ذهبية تتيح له العودة إلى الساحة الإعلامية واعتلاء شاشاتها مرة أخرى. فضلاً عن المبلغ الكبير الذي سيحصل عليه من البرنامج، عقب انتهائه من تسجيل الحلقة، إنها فرصته إذن.

بعد إعلانات عادة ما تسبق بداية الحلقة بدأ البرنامج، وأصبح الشيخ أيوب، مع مقدم البرنامج ذي الابتسامة الجذابة على الهواء. رحب بالمشاهدين على النحو المعتاد، وقدم ضيفه للجمهور بإسهاب، وبعبارات المدح والإجلال التي تزيد من تلميع صورة الضيف لدى المشاهدين.

كان موضوع الحلقة مثيرًا، عن تعدد الزوجات الذي تدور حوله شبهات كثيرة، بحسب كلام المقدم؛ فالكثير من الملاحدة والمستشرقين، فضلاً عن أولئك الذين لا نعلم في أي فئة نصنفهم، يثيرون الكثير من الشبهات حول الإسلام، البعض يقول إن ذلك بقصد تشويهه، وآخرون يؤكدون أنهم يبحثون عن إجابات مقنعة فقط، وتعدد الزوجات أحد أكثر المسائل شبهة لما فيه من التباس واختلاف كبير في آراء المعاصرين، ولا يعلم العوام من المسلمين كيف عليهم أن يواجهوا من يقول إن الإسلام بهذه المسألة قلل من شأن المرأة ولم يكرمها كما يقول العلماء؟

جاء الدور على الشيخ أيوب. بدا أكثر ثقة وهو يشرح أن تعدد الزوجات من المواضيع البارزة والهامة التي أولاها الله تعالى عناية خاصة، فوضعها في أول سورة النساء من كتابه الكريم، وجاء ذكر التعددية الزوجية في الآية الثالثة من السورة، وهو الموضع الوحيد في التنزيل الذي ورد فيه ذكر المسألة.. مؤكدًا أن الله لا يشرع شيئًا إلا وله من وراء ذلك حكمة عظيمة، فضلاً عن أنه أمر من الله، استدل بقوله تعالى في سورة الحشر: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ".

"صدق الله العظيم". قال المقدم.

وأمسك بالقلم يؤشر في بطاقة ملاحظات أمامه، أضاف:

"فضيلة الشيخ، هل من الممكن أن توضح لنا ما القصد وما هي الحكمة التي تتحدث عنها من تعدد الزوجات في الإسلام؟"

أجاب الشيخ بكل ثقة: إن لله في خلقه شؤونًا. وأشار إلى أنه ليس مخولاً بإقناع من ختم الله على قلوبهم: "ولكن، أقول إن الإسلام شرع للرجل ذلك لما فيه من فائدة للمجتمع ككل، أولاً، ومن ثم للرجل كدافع ثانوي". قاطعه المقدم: كيف؟ أجاب الشيخ: لو طُبِّقت هذه السنة، في كافة الدول الإسلامية، ما تفشت فيها ظاهرة العنوسة، وهو أمر بالغ الخطورة، ويؤدي غالبًا إلى الوقوع في مستنقع الرذيلة. قال أيضًا: إن القصد من وراء هذا التشريع له علاقة بأن المرأة، مهما كانت جميلة، لا تستطيع إشباع رغبات الزوج، خصوصًا بعد أن تنجب أطفالاً عدة، وأن بعض النساء لسن بالجمال الذي يتمناه أزواجهن، وهناك من تنجب الإناث فقط، وهناك من لا تنجب، لذا، فالإسلام شرع للرجل الزواج بالحلال، بدلاً من أن يخون زوجته بالحرام، سرًا، كما يفعل الملاحدة والكفار.

خرج مقدم البرنامج بفاصل إعلاني. تنفس الصعداء كلٌّ منهما في استراحة يستعيدا فيها أنفاسهما وأعصابهما المتوترة، وخصوصًا ضيف البرنامج.

كانت بداية موفقة إلى الآن للشيخ أيوب، لاقى كلامه استحسان الغالبية من الرجال المتابعين والمتفاعلين في صفحة فيس بوك الخاصة بالبرنامج، أما النساء فكان لهن رأي آخر.

انتهى الفاصل الإعلاني، وعادت الكاميرات للعمل.. كان الشيخ أيوب قد انتهى للتو من شرب كوب ماء بارد أنعشه وروى عطشه، دخل الجزء الثاني من الحلقة حين أعلن المقدم استعداده لتلقي الاتصالات من المشاهدين

للنقاش مع الشيخ أو الاستفسار منه حول الموضوع. إحداهن، وكنيتها "أم إسلام"، في مداخلة لها في البرنامج، بعد التحية، قالت للشيخ إن زوجها لا يؤدي واجباته الزوجية، وعلى استحياء توضح:

"أقصد في العلاقة الحميمية".

أطبق الصمت عليها للحظات، بعد ذلك سألت:

"هل يحق لي الزواج بغيره"؟

صُدِمَ الشيخ مما سمعه. أضافت:

"مع العلم أني أم لثلاثة أطفال".

دوَّن المقدم السؤال في ورقة ثم كرره على الشيخ، بدا من ملامح الأخير أن السؤال أغضبه، وبالكاد انتظر حتى انتهت من طرح السؤال واندفع يعلق قائلاً: "إن هذا الكلام حرام.. لا تقوله مسلمة عاقلة تعرف دينها".

قاطعته المتصلة تتساءل بتهكم:

"أولستُ ناقصة عقل ودين؟!"

سلط المصور كاميرته على وجه الشيخ وقد امتقع غضبًا. واصل حديثه ليؤكد أن الإسلام لم يشرع للمرأة تعدد الأزواج كما شرع للرجل تعدد الزوجات، لأن هذا، حسب قوله، غير معقول. وتعزيزًا لما قال أشار إلى صفحات التاريخ البشري، وتحديدًا الإسلامي، يستدل به بأنه لم يسبق لامرأة أن

ابتدعت هذه البدعة. هاجمته: ومن أين ابتدعت هذه الأسباب التي لم تذكر لا في قرآن ولا في سنة؟ قاطعها: "الله قالها صراحة: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع". بدأت المرأة ترفع صوتها مع ارتفاع صوت الشيخ وكأنهما في حرب سلاحها الصوت الأعلى. هدأهما المقدم وطلب من أم إسلام أن توضح متى ابتدع الشيخ وفي ماذا افترى؛ فهو لم يستدل سوى بالقرآن!

أجابت أم إسلام: "نعم، ولكنه تلاعب بالقوانين، كانت التعددية منتشرة بين الشعوب كظاهرة مقبولة اجتماعيًا دون حدود أو شروط، وجاء القرآن ليحددها ووضع لها شروطًا ليجعل منها حلاً يلجأ إليه المجتمع في حالة الحروب. لكنه، والمفسرون والفقهاء من أمثاله أغفلوا السياق العام الذي وردت فيه الآية مما أفقدها المعنى".

"كيف؟" سأل المقدم.

قالت موضحةً: إن تعدد الزوجات مرتبط بالأرامل ذوات الأيتام، وهو الشرط الأساسي والوحيد، فقد استهل تعالى سورة النساء بدعوة الناس إلى تقوى ربهم وإلى صلة الأرحام التي انطلق فيها من رؤية واسعة إنسانية، لا من رؤية أسرية أو قبلية ضيقة، إشارة إلى أن أصل خلق الناس كان من نفس واحدة، فيقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا".

قاطعها بقوله: ما علاقة هذا في ما نحن فيه؟ قالت:

"دعني أكمل لو سمحت."

"تفضلي."

"انتقل سبحانه وتعالى إلى الآية الثانية وتحدث فيها عن اليتامى، ليأمر الناس بإيتائهم أموالهم وعدم أكلها، فقال: "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا". وهنا يا أستاذ نبيل تابع سبحانه وتعالى الحديث عن اليتامى، آمرًا الناس بنكاح ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، ولكن في حالة واحدة فقط، وهي الخوف من ألا يقسطوا في اليتامى: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى"، الله هنا لا يسمح فقط بالتعددية؛ بل يأمر بها، لكنه يشترط لذلك شرطين: الأول أن تكون الزوجة الثانية والثالثة والرابعة أرملة ذات أولاد، والشرط الثاني أن يتحقق الخوف من عدم الإقساط إلى اليتامى، ويلغى الأمر بالتعددية في حال عدم تحقق الشرطين، ويأتي جواب الشرط في الآية نفسها، فيقول تعالى: "فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ".

تابعت أم إسلام حديثها: "إن الشيخ، للأسف الشديد، يختبئ وراء أصبعه، ويحاول أن يقنعنا بأن نفعل مثله، ولا أدري لماذا لا ينظر في هذه الآيات ويدقق أمام العلاقة السببية في الآية بين تعدد الزوجات واليتامى، والتي جاءت في سياق واحد".

وعلقت على حجج الشيخ التي برر بها موقفه، في بداية الحلقة، قائلة إنها لا تعرف، أتضحك من قبح عذر كهذا أم من صلافة ووقاحة من يحتمي به

ويعتبر آراءه الغبية مقدسة باعتبار أنه شيخ، وما ينطق إلا عن علم.. أضافت بازدراء:

"إنه علم محرف ومزيف."

طلب منها المقدم الالتزام باللباقة في الحوار.. واصلت شرحها: يقول الشيخ إن عدم الإنجاب يبرر للرجل الزواج من ثانية وثالثة، وكأن العقم والعقر من آفات المرأة التي لا تصيب الرجال. قال إن الشبق الجنسي عند الرجل يبرر له التعددية، وتغافل عن حقيقة أن الرجل والمرأة في هذه المسألة سواء، لا، بل إن المرأة أوفر حظًا فيه من الرجل. وقال أيضًا إن عجز المرأة عن القيام بدورها كزوجة بسبب المرض الطويل أو العارض الدائم يبرر للرجل الزواج ثانية وثالثة، سأسأله: ماذا لو كان الرجل هو العاجز والمريض؟ هل يجوز للمرأة أن....؟"

بقي الشيخ صامتًا، ولا أحد يعلم السبب، في حين واصلت هي الحديث والقول إن الفقهاء يبتدعون مبررات تسوغ للرجل الزواج بأربع تحت شعارات مضحكة حينًا وظالمة في كل الأحيان.

"إنه يشرع لنفسه."

كانت العبارة ناقصة المعنى، ويجب عليها، كما قال المذيع، أن تعزز كلامها بدليل كي يكون النقاش علميًا، حسب قوله، لا شخصيًا. ردت عليه بثقة: "أنا لا أتقوّل على أحد، شيخنا الجليل أيوب تزوج، قبل شهر تقريبًا، على

زوجته المسكينة، وكانت حجته في ذلك أنه يريد أن يكون له صبي، بينما هي لم تنجب له سوى البنات."

"وما أدراها؟!"

تساءل الشيخ في نفسه حائرًا من غرابة انتشار خبر زواجه، رغم أنه لم يصنع للعرس احتفالاً..

"ما يعني أن زواج الشيخ أيوب بامرأة أخرى على زوجته". ارتفع صوتها: "باطل.. ولا يجوز."

قطب الشيخ حاجبيه وهو يستمع لحديث المرأة.

"باطل!"

قاطعها المذيع مستنكرًا!

أكدت: "نعم. باطل.. ولا أبالغ أبدًا إن قلت إن علاقته بها الآن تعتبر محرمة"!

الشيخ غاضب ومتوتر، وها هو المذيع ينقذه، معلنًا للجماهير عن فاصل إعلاني. طلب الشيخ مناديل، قطرات العرق تتصبب من رأسه وتظهر بوضوح في جبينه، والمقدم قبالته يرمقه بخبث، مدركًا ما يشعر به الشيخ من توتر واستياء، تدافع طاقم البرنامج في الماكياج لتلبية طلب الشيخ، أعطوه المناديل جفف بها ما سال من العرق في جبينه، مرت الخمس الدقائق، بفاصل لعدة إعلانات ترويجية، حضَّر فيها الشيخ نفسه واستعاد ملامحه الجادة والرزينة. سأله المعد:

"مستعد يا مولانا؟"

لم يسمعه، كان يفكر في المرأة التي تحاوره: من تكون؟ وكيف عرفت أنه متزوج، ويبغض البنات، ويريد إنجاب صبي هل يعقل أن تكون؟ كرر المقدم قوله:

"مولانا.. مستعد؟"

ولما بدأ البث من جديد نزع الشيخ أيوب الميكروفون من ياقة البردة، وحرر أذنه من السماعة، وخرج غاضبًا دون أن يدرك المشاهدون السبب وراء فعله هذا.

كانت أم إسلام، محدثته في البرنامج، والتي أحرجته أمام المشاهدين، طوال الحلقة، بحججها القوية والتي دحضت كل تبريراته وآرائه؛ هي زوجته، أم مريم.. لقد تعرف عليها من خلال صوتها ومعرفتها ما لا يعرفه شخص آخر، وتأكد من ذلك أيضًا عندما عاد إلى المنزل ولم يجدها فيه.

لم يكن غاضبًا مثلما كان ذلك اليوم، لذا، لما عادت إلى المنزل، وكان بانتظارها لم يقل لها شيئًا سوى تلك العبارة التي لا رجوع فيها:

"أنت طالق. طالق بالثلاث."

الصحافي

كان بصحبة أصدقائه، وانشغاله بكتابته القصص، ينسى أفكارًا محزنة، لا يثيرها في باله إلا القات، إذا ما مضغه في النهار يؤثر فيه، ويجعله يتخيل أن كل شيء في قبضة يده، لا يرى للمستحيل معنى في الحياة، كل شيء يبدو له في أفضل حال، ويشعر أنه أذكى رجل في الكون، وما إن يزيله من فمه، في الليل، حتى ينقلب مزاجه رأسًا على عقب، يدخل في نوبة هذيان، وينال قلبه جيش من الهموم، فتستحيل أبسط الأمور لديه مشاكل عويصة يعجز أكبر مخ على حلها. ذات اليوم، شاءت الأقدار أن يلتقي صادق بصديقه الدبعي، في مقهى العم مدهش، المقهى الذي كانا في السابق يجلسان فيه سوية كلما سنحت لهما الفرصة، وسُرَّ كلاهما بلقاء الآخر، احتضنا بعضهما باحتفاء، ليجلسا، بعدئذ، ويتجاذبا أطراف الحديث، كلٌّ يحكي قصة حياته وكيف أن الحياة بخيلة عليه بالحظ وكريمة بالنكبات والمشاكل..

لم يكن يخطر في بال صادق أنه سيجد ضالته هناك، في المنتزه. تعرف صادق من خلال الدبعي على الشاب العبقري المشهور بلقب آينشتاين، أفضل صانع أجهزة لاسلكية وأمهر مخترق شبكات في البلاد، والبعض يبالغ في الوصف فيقول إنه الأمهر في الشرق الأوسط، وكان بحوزة هذا الـ آينشتاين ورقة اليانصيب التي من المرجح أن تعيد لصادق المجد الذي ينشده من القصة الحقيقية الوحيدة في حياته. حدثه عن رغبته في معرفة ما يجري في ذلك القصر الواقع خلف الجبل المذكور في رسالة الفتاة المخطوفة مريم، فهم آينشتاين

القصد من صادق، بلور الفكرة في رأسه وهو يدخن النارجيلة، وفجأة بدأ يتحدث عما توصل إليه.

شيء مدهش هذا الذي تحدث عنه آينشتاين، جهاز خطير ذو حدين، تمامًا كالسلاح إذا كان في أيادٍ خيِّرة فإنه في موضع تأمين ودفاع، وإن وصل إلى يد الشر فإنه سيشكل تهديدًا كبيرًا، وعلى الجميع الاحتراس. قال إنه سيعمل على صناعة جهاز لاقط موجات لاسلكية، يلتقط المكالمات من كل شبكات الاتصال حتى الشبكات الأمنية.

فكر صادق في أن ذلك يفي بالغرض، فأن تتنصت على متنفذ مشتبه به يعتقد أنه في مأمن من المراقبة، أفضل بكثير من أن تجهل كل شيء عنه: "وهل تقدر على صنع هذا الجهاز حقًا؟" هز رأسه بالإيجاب وأقنعه بذلك. بالمقابل فهم صادق من كلام هذا العبقري أن صنع جهاز يملك هذه المميزات ليس أمرًا مستحيلاً، يصبح كذلك، في حالة واحدة فقط..

"ما هي"؟ سأله صادق..

أجاب والدخان يخرج من فمه:

"عدم وجود المال".

صعب عليه توفير المبلغ الذي طلبه آينشتاين منه مقابل جهاز لاقط الموجات، فلم يكن أمامه سوى أن يفتح باب الاقتراض والدين، لكن القدر رفض أن يعطيه المفتاح، لجأ إلى أمه فلم يجد لديها ما يحتاج إليه، وطلب، غير مرة، من

أكثر من صديق أن يقرضه المبلغ إلى أجل قريب، لكن أحدًا لم يتعاون معه.. عندها، شكا أمره وقلة حيلته لصديقه الدبعي، وبعد تفكير طويل، اقترح عليه الأخير حلاً يرى أنه الأنسب لفك هذه العقدة، على الأقل في ظل ظروف البلاد الصعبة.

"لكن فيها مجازفة".

قال له وهما يدخنان النارجيلة، في متنزه الشلة. اختنق الصحافي بالدخان الذي علق في صدره من الفرحة كبائس توقف قلبه من الفرح في لحظة ربحه بقصر فاخر لم يحلم به.. رد عليه وهو يسعل: "أنقذني.. لي منعك"، أخذ الدبعي نفسًا طويلاً من النرجيلة، ثم أخرج النفس من فمه، مكونًا أمامه غيمة من دخان. نظر إلى الصحافي بريبة وقال:

"بيع الجنبية الصيفاني[٤]".

لم يكن هناك فرصة لدخول صادق غرفة أبيه إلا عند الأصيل، الوقت الذي تكون فيه أم صادق بالخارج، عند جارة أو قريبة، ويكون الأب قد انتهى من

---

٤ الجنبية الصيفانية، هي أحد أنواع الجنابي (الخناجر) اليمنية النفيسة ثمنًا لنفاسة وطيب نوع مادة صنع مقبضها، والتي غالبًا ما تكون من قرن حيوان "وحيد القرن" وغيرها من قرون الحيوانات النادرة التي تتغير لونًا وصفاء مع مرور الوقت وتقادم الزمن عليها، وتسمى "صيفانية" نسبة لاسم صناع مقابضها من "بيت صيفان"، لتمييزها عن الجنابي الأخرى المصنعة مقابضها من بيوت أخرى شهيرة بحرفة صناعة مقابض الجنابي، أمثال بيت العزيري وبيت الشبواني وغيرهما.

تناول القات ودخل الحمام ليتوضأ ويغتسل استعدادًا لصلاة المغرب. لبث صادق في غرفته طويلاً حتى حانت اللحظة التي انتظرها. استغل ذهاب أبيه للوضوء، وقام بالتسلل إلى الغرفة الكبيرة مشيًا على أطراف أصابعه كي لا يشعر به أحد، وبسرعة الخائف فتش عن المفتاح في الأدراج، تحت السجاد، وفوق الدولاب وجده أخيرًا، لفرحته العارمة أحدث جلبة باصطدام كوعه بباب الدولاب الحديدي، تسمر في مكانه للحظات يتلطف إذا ما كان أحد قد سمع شيئًا.. الله وحده يعلم ما قد يحدث إذا كُشف أمره وعلم والده بأمر اختفاء هذه الجنبية. تمكن صادق من فتح قفل الخزانة التي وضعت فيه محبوبة أبيه وأميرته، لمع بريق رأسها في عينيه حالما وقعت عينه عليها، لا بد وأنها ستباع بأكثر مما اشتروها به قبل سنوات. كانت ملفوفة بقطعة قماش مخملي، أخذها بيد، وأغلق بالأخرى الخزانة، على مهل أعاد المفتاح حيث كان، همَّ مستعجلاً بالرحيل، لولا أن ما كان يخشى حدوثه حدث بالفعل فور التفاته إلى جهة الباب المفضي للخارج عازمًا مغادرة الغرفة، اصطدم بصدر أبيه:

"ما بتفعل؟"

يبست شفتاه وجحظت عيناه كأنما وقع بين يدي عزرائيل. وقع في قبضة أبيه متلبسًا لا يستطيع إنكار جريمته. لاحظ الأب الجنبية في يد صادق، وفي عينيه تشتعل نار الغضب، وعلى وجهه ملامح السخط. حاول أخذها دون اللجوء للقوة. رغم خوفه، لم يستطع صادق منع نفسه من التمسك بآخر أمل له لتحقيق هدفه. بقوة أكثر حاول انتزاعها منه، وبنبرة صارخة سأل الأب:

"وهذه.."، أشار بنظره إليها: "ما ادَّاها ليدك؟!"

غالبًا ما نسيء تقدير الأمور، ونرتكب أخطاء جسيمة عندما نقع في مأزق. تلعثم صادق من أبيه:

"كنت.."

قاطعه والده بغضب:

"كنت أيش!" عض على شفتيه ودمدم: "تشتي تسرقها؟".

كان الأب قد أخرج الجنبية من العسيب (غمد الخنجر)، وأشهرها في وجه ابنه الذي التصق بالجدار بدفع من أبيه. في تلك اللحظة دخلت الأم وعندما رأتهما على ذلك الوضع، انخرطت في البكاء ترجو الأب وتتوسل إليه أن يدخل الجنبية ويترك صادق في سبيله.

بدا وكأنه لا يأبه.

قالت محذرة:

"مغارب.[5]"

---

٥ مغارب: كناية عن الوقت غير المناسب للنوم أو الخوض في مهاترات، باعتباره في الثقافة الشعبية وقتًا مشؤومًا يتطير به اليمانيون، وربما كان مصدر هذا التشاؤم توقيت مآب الأحياء إلى مالكهم نبي الله سليمان عليه السلام، وآيته ملك الإنس والجان.

مريم

كلما حاولت مريم نسيان تلك الذكرى المؤلمة التي تسببت لها، غصبًا، بقضاء باقي حياتها في هذا الجحر المسمى غرفة، تنظر إلى وجه عيسى، وتعود بها الذاكرة إلى ذلك اليوم المشؤوم، تلك الدقائق التي استغرقتها مع النذل في الفندق الفاخر. بعد حين أدركت مريم أن متعة الدقائق تحولت إلى سلسلة مصائب، وها هي تدفع ضريبة الطيش من عمرها وتقاسي وحدها جحيم الندم الذي يكبر يومًا تلو آخر، مع ابنها عيسى.

"لو كان لي أب فضائي لأخرجني من هذا العالم الذي لا يوجد فيه أصدقاء، واصطحبني معه في نزهة إلى القمر أو إلى كوكب أكشن، لنتقاذف هناك بالتراب الأحمر مع شمندر، ثم نذهب إلى الملاهي في كوكب زمردة، ونلعب مع تمرانا[٦] التي حكيت لي عنها، وقبل أن نعود إلى البيت نشتري المثلجات اللذيذة من كوكب نيبتون".

"آه لو تنفع كلمة لو". قالت مريم ثم سألت:

"ولماذا تذهب إلى الفضاء، يا صغيري!"

لو أن لك أبٌ صنعاني، ربما لسكنت في بيت له غرف كثيرة أوسع من هذه، وأجمل أثاثًا، تصعد درجه الضخم.. تلعب في الجُبا[٧] بالكرة، وإذا شعرت

٦ شخصية فضائية من مسلسل الكوميديا والخيال العلمي (كشكوش).

٧سطح منزل.

بالملل تقفز إلى سطح بيت الجيران وتشارك أطفالهم اللعب وصيد العصافير بالأقواس.

ولو أنك تنتمي لأب تهامي، أسمر البشرة. تصحو، كل صباح، وتسبح في بحر أوسع من الذي في حمامنا هذا، بحر أخشى عليك فيه من الغرق، تصنع صباحًا، عقودًا من الفل والكاذي، وتذهب لبيعها في الأسواق.

ولو أنك ولدت لأب من حَجَّة، ربما تعيش في أسرتك ملكًا أو عبدًا للأسر الثرية، تقرأ آية الرق وتتساءل: لماذا يا الله؟! ولا يأتيك رد. وحين تكبر تصبح، بأمر القدر، متسولاً في صنعاء، وإن حالفك الحظ وأكرمك، تصبح، في حجة، سمسارًا للعبيد!

ولو ولدت في محافظة إب، وكبرت وترعرعت مع بساتينها الخضراء، طفلاً في الشحر، ومراهقًا في المدينة، قد تهاجر وتتزوج في ميتشاغن بابنة عمك، لتحصل على الجنسية الأمريكية، وتنجب أطفالاً تتحدث أمامهم عن حبك لوطن ترفض العودة إليه!

ولو كنت واحدًا من سكان النفايات ومدن الصفيح، تعيش في غرفة مع والديك، تشاهد كيف يتم إنتاج الأطفال، تدفن موتاك وتشيعهم في الغرفة نفسها. تأكل كل يوم في مأدبة جماعية، تجبرك الحكومة على أن تعمل عامل نظافة، مثل كل "المهمشين" [٨]، تغوص كل يوم في قوالب النفايات، تلتصق

٨المهمشون أو "الأخدام": اسم تمييز على أساس عرقي لا طبقي وظيفي مجتمعي، يطلق على فئة مجتمعية من ذوي البشرة السوداء مازالوا يعيشون في تجمعات منغلقة على نفسها،=

بجلدك رائحة نتنة لا تفارقك، تنفر الناس منك، وإذا أردت أن تنتصر لنفسك تضرب عن العمل، فيعرف الناس قيمتك وتأتي الحكومة راكعة تحت قدميك!

ولو كنت ابنًا من ريمة ربما لن تملك رسوم دراستك، فتذهب لبيع الملابس مع والدك، فوق عربة ذات ثلاث عجلات، تجرها من سوق لآخر وتهتف: شمزان.. فنايل.. قمصان..

ولو كنت ابنًا من صعدة.. غداؤك الرمان، وعشاؤك "البردقان"، وتتعلم في سنيك الخمس الأولى القراءة حتى تلوك لسانك الفصحى، وتصل إلى العاشرة وقد أصبحت حافظًا ثلث القرآن، ربما تنصرف بعدئذ إلى حمل السلاح كبقية أقرانك، تتدرب عليه، ولا تبلغ الثانية عشرة إلا وقد أجدت التعامل مع الرصاص، وأصبحت قادرًا على قنص سيجارة من على بعد أمتار!

ولو كنت من يهود عمران، ستمنعك الدولة من العمل في مؤسساتها، فتعمل في الفضة وتجني المال الكثير، تخفيه ولا تستنفع به؛ كي لا يقبض عليك أو يتهمك أحدهم بتهمة "العمالة لإسرائيل"! ستعاني من ازدراء بعض المسلمين، ستخرج من بيتك بعينين حذرتين، يتدلى من رأسك زناران يجذبان النظر، وتكون، ودينك، سببًا في منعك من دخول المدرسة!

=ويقال إنهم من بقايا العبيد الذين كان يتم استيرادهم من أفريقيا، وأنهم من بقايا جنود الأحباش الذين تسنى لهم بدعم من إمبراطورية روما غزو اليمن سنة ٥٢٥م.

ولو أنك من ذَمَار.. لكنت صاحب نكتة، تقرأ كتابًا عن الثعابين وأنواعها، فإن سألك أحد: "ألم تجد كتابًا آخر لتقرأه؟" ستجيب ساخرًا: "أريد أن أصبح رئيسًا للبلاد[٩]" !

٩عبارة مشهورة لرئيس الجمهورية اليمنية (١٩٧٨ – ٢٠١٢م)، علي عبدالله صالح، قال فيها إن حكم اليمن كالرقص على رؤوس الثعابين.

الانتحاري ٥٠١

هذا الحزام الخبيث لا يشبه أبدًا تلك الأحزمة التي اعتدت رؤية عناصر القاعدة بها في مشاهد تبثها نشرات الأخبار، ولا كالتي في المنشورات التحذيرية، ولا حتى في الصحف، مشدود على خاصرتي بشدة، تمامًا مثل أفعى الكوبرا يلتف حول جسدي يكاد يمزقه. "صنع بطريقة حديثة ومبتكرة جعلت من مهمة تفكيكه شيئًا من المستحيل." هكذا قال الرجل الغريب، وبحسب قوله أيضًا فقد صُنع الحزام كبقية الأحزمة من حيث مواد التفجير، لكن تم تغليفه باحتراف ليصبح أخف حزام ناسف في تاريخ "المجاهدين"، بحسب قوله، أو الإرهابيين بحسب قولي ونشرات الأخبار. إذن، فإن الحزام غير قابل للإزالة والتفكيك، ويتم تفجيره بطريقتين: إما عن بعد، ومصيري في هذه الحالة مرهون بمزاج رجل لا أعرفه، وإما بسحب سلك وحيد لا يظهر من الحزام سواه. تم تطوير صناعة الأحزمة بهذه الطريقة حتى يسهل على الانتحاريين الانغماس في الأماكن الحكومية والعسكرية، دون أن يلفتوا انتباه أحد. وها هو الابتكار الخبيث ينجح معي، وبشهادة مني.. إذ لم يُلاحظ أحد أنني ألبس حزامًا ناسفًا إلا حين رفعت القميص لأشاهد ما الذي يشد على خاصرتي.

ليس عليَّ الآن، بأوامر من الرجل الغريب، إلا الذهاب إلى المستشفى العسكري للقيام بالمهمة التي أوكلني بتنفيذها، وهي قتل أحد أفراد الحراسة. أرسل لي صورة الهدف وحثني على الحذر، تحركت إلى هناك فورًا، مشيًا على

الأقدام، فالسيارات تفتش بمن فيها، وكذلك الدراجات النارية والباصات.
في الطريق كان الرجل الغريب يطمئنني بأن كل شيء سيجري على ما يرام، لأن الرجال المجاهدين سيطوقون المكان ويؤمِّنون المنطقة لأكمل مهمتي بلا أي معوقات. دلني على الحيلة التي استدرج بها الحارس الهدف، وقد نجحت الحيلة. لم أشعر بذلك التوتر الذي اعتراني وأنا في طريقي مع الحارس إلى الزقاق حيث قلت له بأن زوجتي وابنتي تنتظرانني هناك.

نسيت تعمير المسدس كاتم الصوت، ليس ثمة طريقة لتفادي الخطأ، خطأ قد يكلفني حياتي. نظر الحارس إلى الزقاق فلم يجد أحدًا، وقبل أن يلتفت إليَّ ضربت رأسه بالمسدس فوقع أرضًا، كنت خائفًا جدًا، لم أتوقف عن ضرب جمجمته حتى تكسرت وتلطخت يداي بالدم، التفتُّ لأرى إن كان أحد قد رآني.. لا أحد. ألهث فوق الجثة بملامح تعتريها الصدمة، عيناي مفتوحتان على اتساعهما تحدقان في الجثة. لقد مات، لقد قتلته، كانت الضربة الأولى التي أصابت الجزء الأيمن من رأسه كفيلة بقتله، لكنني كنت مرعوبًا للغاية، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنقض عليه بوابل من الضربات، حسنًا.. لقد أكملت جزءًا من المهمة وقتلت العسكري، يتعين عليَّ الآن تنفيذ الجزء الثاني من المهمة.

دون أن أفكر في ما جنيته للتو، سحبت الجندي إلى نهاية الزقاق حيث أصبحت مخفيًا ولا شيء يخفني سوى الظلام. لبست النظارة الذكية وشغلتها، أخرجت السكين من بزتي، جلست على ظهر القتيل، أمسكت رأسه وبدأت بالحز. يا لها من مأساة، يا لبشاعة هذا المنظر وما أخبث قلبي، كم كنت شنيعًا

وأنا أشد شعر العسكري الميت كيما يسهل عليَّ ذبحه. الأمور عند الخوف تجري على غير ما يرام، بل وتصبح كارثية. لم أُجد حز الرأس كما ينبغي، كنت أتلكأ خوفًا ويداي ترتعشان، ما أدى إلى تمزيق العنق بأكمله، ولم أتوقف عن اللهث فوق الجثة إلا في اللحظة التي فُصل فيها الرأس عن الجسد. كيف فعلت هذا؟ لا أصدق، غير معقول، كنت قبل دقائق إنسانًا مسالمًا، وفي غضون هذه الدقائق القليلة أصبحت قاتلاً نهمًا! خرجت من الزقاق بحذر أتلفت يمينًا ويسارًا بعينيَّ الجاحظتين، متبينًا أن أحدًا لم يلاحظني. ما تفسير تهيئة الظروف لي لأرتكب الجريمة هكذا ببساطة، ودون أن أواجه أي عراقيل؟ أكان ذلك من لطف القدر بي، أم أن الفضل يعود إلى رجال الرجل الغريب؟!

خلال عودتي إلى اللوكندا كنت قد نسخت مقطع الفيديو من النظارة الإلكترونية إلى الهاتف ثم أرسلته إلى البريد الإلكتروني الخاص بالرجل الغريب، كما علمني أن أفعل. لم تمر سوى دقائق من إرسال المقطع حتى رن الهاتف في جيبي، أجبت هذه المرة وأنا في الكفة الراجحة: لقد فعلتها إذن!؟ بدا من صوته أنه يحتفي بما فعلت: "لا أدري كيف حدث ذلك". قلتُ له بنبرة المندهش: "لم أكن أشعر بنفسي". قال إني أدهشته: "لقد كنتَ شجاعًا أكثر مما كنت أعتقد. حسنًا، الساعة الآن تشير إلى العاشرة إلا عشرين دقيقة، بقي من عمر المهمة إحدى عشرة ساعة، كما تشير الساعة في يدك". نظرت إليها وقد أصاب فيما قال. أضاف: "أضف إليها الآن أربعًا وعشرين ساعة"، عبأتها كما

أمرني، "تبقى من عمرك الآن ست وثلاثون ساعة، وتسع عشرة دقيقة، وحتى ذلك الحين سأتركك لتستمتع بحياتك". وقبل أن ينهي المكالمة حذرني: "إياك أن تتهور وتحاول فعل شيء خاطئ.. إياك."

إن كانت أمي الآن أمام التلفزيون تبكي وتضرب بتصريحات المتحدث عرض الحائط، فإن انفعالها وقلقها الشديد عليَّ يعد أمرًا بديهيًا وردة فعل متوقعة منها كأم، فما يدريها أنني الآن لستُ في خطر، كما سيحاول أبي والآخرون إفهامها، ككل من في هذه البلاد تسمع كل يوم أخبارًا يهتز لها البدن ويشيب لها الرأس! كيف لا تفعل ونشرات الأخبار تخبرها كل يوم عن عملية إرهابية جديدة منفذها شاب، في مثل عمري، وضحاياها أيضًا شباب اختفوا من منازلهم فجأة ومن دون أي علامات أو إشارات تلمح إلى شيء مريب قبل اختفائهم، ليظهروا بعد ذلك في نشرات الأخبار المحلية والعالمية وقد نَمت لهم لحى، البعض منهم يظهر في وضع الضحية ويلقى مصيرًا مرعبًا، إما بحز رأسه أو بأية طريقة وحشية أخرى يبرع في ابتكارها هذا التنظيم الشيطاني، والبعض الآخر كل يوم يكون في وضع الإرهابي الجاني الذي يرتكب الجريمة، وهو موقف لا يقل رعبًا عن سابقه! أتذكر والدة أحد الشباب وقد رأت ابنها في تسجيل مصور وهو يقطع رأس أحد الجنود في محافظة لحج، هذا ربما ما تخشاه أمي الآن أن تراني في الموقف نفسه. أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، كلاهما أبشع من الآخر. ليس باستطاعة أحد أن يقنعها بأني بخير إلا بأن يأتي بي إليها، إما أن تراني بين يديها أو أنني الآن في خطر، أما

الكلام فلا جدوى منه، هذا هو الحال ولا احتمال آخر خصوصًا أن العاصمة لم تشهد أبدًا عمليات إرهابية مكثفة كما هو حاصل هذه الفترة، وسط غياب جلي ومريب للأجهزة الأمنية وتكتم لا مبرر للسلطات العليا في البلاد، وذلك لا يمت لتصريحات الناطق الرسمي باسم وزارة الداخلية بصلة. ولا أدري، حقًا، بأي وجه يتجرأ ذلك الرجل على الإدلاء بالتصريحات ذاتها التي يرددها كلما نفذ التنظيم هجومًا على مؤسسات الدولة ومسؤوليها.

المصعد

عندما جفت الكلمات من ألسنتهم، ووجدوا أن لا شيء آخر عندهم يقولونه، غير الذي قيل، قررت الطبيبة التي التزمت الصمت منذ صعودها المصعد أن تبوح بما تحفظت به، كما تقول، منذ عدة أسابيع:

"إنهم الإرهابيون".

قالت كاسرة موجة الصمت التي سادت المصعد لدقائق. عقدت حاجبيَّ وكأنني انزعجت من مصطلح الإرهابيين.. لماذا؟ أتراني أصبحت واحدًا منهم؟ زادت ريبتنا بقولها:

"أعتقد أن تنظيم القاعدة يهاجم المستشفى الآن".

ولماذا قد يهاجمون المستشفى؟ سألت نفسي.

"ماذا تقولين؟" سألها الصحافي. "كيف عرفتِ ذلك؟!"

بعد إلحاح الصحافي بالأسئلة وضحت بقولها إن الإرهابيين هددوا، قبل أسابيع ثلاثة، باقتحام المستشفى. سألها الصحافي عن الشخص أو الجهة التي تلقت التهديدات. أجابت: "لا أدري". وأضافت:

"أشيعت بين الأطباء أخبار مفادها أن القاعدة هدد بمهاجمة المستشفى". قاطعتها بالسؤال:

"والسبب؟"

أجابت نافذة صبرها: "لا أدري. لا أدري".

اعتذرت لها وطلبت منها أن تواصل حديثها. استلَّت نفسًا عميقًا أخرجته في زفرة طويلة. بعد لحظات قالت إن أحدًا من الأطباء لم يصدق ذلك في البداية، مشيرة إلى أن الوضع تفاقم حين عادت العمليات الإرهابية للظهور مجددًا في العاصمة. توقفت عن الكلام بعد أن ذكرت على لسانها مقتل زميلها الدكتور، وتذكرت أنا الطبيب الذي أرسلته إلى الله.. أتراه الآن معذبًا بسبب ذنوبه تلك في الجحيم، أم أنه وجد له شفيعًا ودخل الجنة؟

انتظرنا حتى استعادت الطبيبة قدرتها على الكلام بلا نشيج أو بكاء، وكلنا آذان صاغية:

"عبر الأطباء بعد تلك الحادثة عن قلقهم مما يحدث، وقرر بعضهم الإضراب عن العمل حتى يتم تأمين المستشفى بالشكل اللازم".

"وماذا حدث؟" سألها الصحافي باهتمام. قالت:

"لا شيء. اكتفى مدير المستشفى بعمل اجتماع طمأننا فيه بأن كل شيء على ما يرام، وأن الأمر لا يستحق كل هذه المخاوف، مشيرًا إلى أن المستشفى تلقى تهديدات من قبل ولم يحدث شيء".

فاقتنعتم بما قال؟

"كلا، ولكن بما أن طبيعة عملنا تحتم علينا المناوبة في أسوأ الظروف لم يكن أمامنا سوى أن نضرب بتلك الإشاعات عرض الحائط".

سمع فجأة صوت صياح موظف المصاعد في مكبر الصوت، تلا ذلك صوت إطلاق نار، ثم جلبة سقوط شيء ما، أعقبه تشويش استمر للحظات مع سماع صوت وقع أقدام، ثم أطبق الصمت على الميكروفون إلى الأبد.

انفض الحديث بعد طول جدال، التفت بوجهي حائرًا أحدق في المرآة طويلاً، ماذا لو لم يفتح خلال هذه الساعتين؟ أسألني ولا أجيب. أعود لأتأمل في وجوههم بأية طريقة، سأبوح لهم بالسر المرعب الذي أخفيه تحت قميصي، أردت أن أصارحهم بالحقيقة بطريقة مناسبة بحيث لا أثير في أحد الانفعال فيندفع لمهاجمتي، وأضطر لإطلاق النار عليه. أفكر مثلاً أن أقول لهم من باب الاحتمالات: تخيلوا، من سيصدق أنني ألبس حزامًا ناسفًا سينفجر بعد ساعتين، رغمًا عني؟ أو أن أبدأ بسرد أحداث قصتي لهم، لعل وطأة الصدمة تكون أقل، أن أخبرهم في ختامها أن باب المصعد إذا لم ينفتح خلال الساعتين القادمتين فإن ذلك سيضطرني لقتل واحد منهم كي لا يضغط الرجل الغريب على زر التفجير، ويفجِّر الحزام بي وأمي، والجميع في هذا المصعد. ربما هذا الخيار الأفضل إذن، لكن حتى وإن قلت لهم ذلك يظل السؤال الأكثر أهمية هنا هو: "وماذا بعد؟".

"يجب أن نجد حلاً لهذه المشكلة."

قلت لهم، ثم غمغمت في سري، وأنا أتحسس وجه أمي المتعب: "لا أريد أن أعود للقتل مرة أخرى".

الملحد

أولئك الذين يفضلون العزلة والجلوس في مكان هادئ بعيدًا عن الثرثرة ليسوا مجانين، كما يقول البعض، بل أناس اشتاقوا لما كانوا عليه قديمًا، عندما كانوا في هوة "العدم" ينعمون بالحرية، فلا حرية مطلقة إلا بكون الإنسان وحيدًا..

كان عبدالله مدللاً من قبل والديه، باعتباره الولد الوحيد، والابن البكر لهما. لم يكن يطلب شيئًا إلا ويُلبَّى طلبه، وكان يعفى من العقاب كلما ارتكب خطأ ما.

كسر والده هذه القاعدة عندما وجد أن عبدالله أجرم في حق الشيخ هزاع، الذي لم يأتِ إلا لمساعدته، وباعتبار أن الشيخ من أولياء الله الصالحين فإن ما حدث له يعتبر إثمًا. كانت ردة فعل الأب تجاه ابنه عبدالله عنيفة، وغير متوقعة. انهال عليه بوابل من الصفعات، ثم تحولت الصفعات إلى لكمات بقبضة اليد، تبعها بسيل من الشتائم التي لم يسبق له أن بصقها في وجه ابنه.

بالمقابل، لم يتصدَّ عبدالله لأبيه، آثر البكاء وهو يتلقى اللكمة تلو الأخرى. استمر مستسلمًا بين يدي والده الغاضب لدقائق حتى فقد وعيه وسقط على فراشه مثل جثة هامدة، ليصحو بعد ذلك ويجد نفسه في فراش آخر غير فراشه، ويكتشف حينها أنه يرقد داخل مصحة للأمراض النفسية، أو بعبارة أوضح، في مستشفى للمجانين.

فتح عينيه ببطء حتى أصبحت الرؤية لديه واضحة ليرى سقفًا أبيض تعلقت به قناديل مضاءة، كأنها مصوبة نحوه. استعاد وعيه بعد أن فقده لأكثر من سبع ساعات. لبث على هذا الوضع دقائق. حاول النهوض فأحس بثقل جسده، بذل جهدًا أكبر ونهض، مستندًا على السرير بكوع يده اليمنى. رفع جسده رويدًا ثم أسنده إلى الخلف.. التفت يسارًا فرأى أربعة أسرة عليها أربعة أشخاص يشكلون بملابسهم فريقًا أخضر اللون. وبالمثل رأى على الجانب الآخر أشخاصًا لا يختلفون كثيرًا عن الأولين. ستة أشخاص في أعمار متفاوتة يرتدون ذلك الرداء الأخضر. لم تمر سوى لحظات حتى نظر إلى ملابسه ليكتشف أنه فرد من ذلك الفريق. إلى جانب الرداء، وجد عبدالله في يده سلسلة حديدية، أو بالأصح سوارًا كُتب عليه:(221-A) . استمر على هذا النحو يتأمل الأشياء والأشخاص من حوله حتى أدرك أين هو.

جال ببصره يبحث عن شخص يساعده ويفك قيده، فلمح والدته تسترق النظر إليه من طرف الصالة المليئة بالمختلين عقليًا، أحس بالعجز والقهر.. أي أُم تلك التي ترى ابنها يحتاج مساعدتها ولا تفعل شيئًا سوى مسح دموعها. أتى إليه الطبيب المختص بحالته فتوسل إليه: دكتور، أنت تعرف أنني لست مجنونًا. هز الطبيب رأسه إيجابًا: لا لست كذلك، تحتاج فقط لبعض الاختبارات. سأله:

"إلى متى سأبقى هنا"؟

قيل له إن مدة بقائه قد تتجاوز شهرًا، استاء وازداد غضبه، حاول إقناع الطبيب أنه عاقل، وأن هذا ليس مكانه المناسب. حكى له ما حدث، ولماذا

جاؤوا به إلى هنا، بيد أن الطبيب كان يقلب أوراق التقرير الطبي في يده كأنه غير مبالٍ بما يسمع، الأمر الذي جعل عبدالله يتحين الفرصة المناسبة إلى أن أخطأ الطبيب واقترب منه أكثر من اللازم ليصبح رأسه فريسة سهلة بين يديه.

انقض على رأس الطبيب، اختطف القلم من يده ووجَّهه نحو عنقه. صرخ بأعلى صوته، طالبًا من فريق الأطباء إخراجه من هذا المكان: "ما لم سأثبت لكم أنني فعلاً مجنون وأقتله.." لما أتم العبارة تعالت أصوات المرضى من حوله بالصفير والشتيمة والتصفيق. تجمع الأطباء من حوله، وجاء أمن المستشفى، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على الاقتراب منه، إن لم يكن خوفًا فلأنهم لا يريدون أن يصاب الطبيب بأذى. ما زال رأسه يتأرجح بين يدي عبدالله، احمر وجهه وجحضت عيناه وبدا كأنه يختنق، يغمغم بكلمات لم يفهمها أحد. انسلت أم عبدالله من بين الأطباء ولما اقتربت منه طفرت الدموع من عينيها بغزارة واهتز قلبه لرؤية أمه تبكي، فبكي هو الآخر لبكائها، وترك الطبيب وحرره من قبضته ليستقبل رأس أمه الغارقة بالدموع.

الملتحي

الحزن يقتل صاحبه رحمة به كما تأكل القطة صغارها، والشيخ أيوب لا تظهر على وجهه ملامح الحزن إلا حين يرى طفلاً في الشارع يمسك بيد أبيه، أو يلعب معه، وحين يرى جارًا له يعنف ابنه أو يضربه حتى البكاء، يغضب في سره ويقول: آه.. لو أن لي صبيًا ما أحزنته بكلمة مهما فعل، لو أن لي، يا الله، صبيًا مثلهم ما تركت له عينًا تبكي إلا من الفرح والسعادة.

لا أحد يدري لمَ لا نحصل على كل ما نتمناه، ولا يتحقق كل ما نحلم به، أحيانًا يتحقق ما نصبو إليه عندما يكون الأوان قد فات. لكن الأوان، بالنسبة للشيخ أيوب، لم يفت بعد. قال للحنجاء، ذات يوم: "أتمنى أن يرزقني الله صبيًا أحمله بين يديَّ، ويحمل اسمي، بعد ذلك لا يهمني أي شيء، حتى إن كان قدري أن أموت بعدئذ.. فمرحبًا بعزرائيل".

لم يجد منها سوى التعنيف والتوبيخ؛ لأنه برأيها قانط من رحمة الله وناقم على النعم التي رزقه بها، ولو أنه حمد الله وشكره على بناته ما حرمه الله مما تمنى.. ما أقسى معاملته لهن وهن البنات اللائي لا يخشين أحدًا أكثر من أبيهن، وما طاعتهن له إلا خوفًا لا حُبًا وتقديرًا: "بتحسِّسهن أنهن عار عليك وأنهن بلا قيمة، لا تعطف عليهن مثل باقي الآباء، وطلقت أمهن، وأصبحت علاقتك بهن مثل علاقة السيد بالعبيد". واختتمت كلامها مذكرة إياه بحديث الرسول عن الرفق بالنساء، وقوله: رفقًا بالقوارير.

يا للغرابة.. من يصدق أن الشيخ أيوب الحافظ والعلامة الجليل لم يجد له في كتاب الله دواءً لدائه، أو حلاً لمعضلته، وهو الذي لا يأتي إليه سائل عن حاجة إلا وأوجد له الحل والدواء من القرآن الكريم! "باب النجار مخلوع"، كما يقول المثل! لكن كيف يعقل أن يكون إيمان عالم الدين ضعيفًا!

ما كانت الحيرة والحزن تعتصران عقله وقلبه، يومًا، كما هو الحال معه الآن. تصدَّق على الفقراء والمساكين بمبالغ طائلة، وكان يصلي الليل دونما انقطاع، رفع يده إلى السماء ودعا: يا الله.. ذرف الدموع بسخاء حتى ابتلت لحيته، زار العرافين اتباعًا لنصيحة أمه فلم يجد لديهم أي دليل أو إشارة تدل على أن أحدًا وضع له عملاً خبيثًا أو سحرًا من أي نوع، فعل كل هذه الأمور ولكن دون نتيجة.

حتى العلماء ممن تربطه بهم معرفة قديمة، وآخرون جمعته بهم حلقات عِلم ودار دعوة استشارهم في مصيبته طالبًا منهم النصح، فجاءته الاقتراحات والنصائح متفاوتة ومختلفة باختلاف من قالوا بها.. شيخ زيدي نصحه بالسفر إلى العراق والذهاب للنجف الأشرف، حيث مرقد الإمام علي كرم الله وجهه. آخر، من أهل السنة والجماعة، أخبره بوجوب الذهاب إلى مكة للحج أو للعمرة، وأشار إلى أهمية زيارة قبر النبي، وأضرحة الصحابة، والدعاء هناك بما يحتاج كي يصبح تحقيق الأمنية أكثر ضمانًا، أما ثالثهم فكان عالمًا مجتهدًا حرًا، لا ينتمي لأي طائفة ولا مذهب، كان مختلفًا عمن سبقوه، فقال بوضوح: "توكل على الله وسافر إلى ألمانيا"، هناك، كما قال، العلاج الحقيقي.

حزم أمتعته، وبعد أن ودع أهل بيته جرَّ حقائب سفره خلفه ومضى إلى المطار.. كانت الحقائب ثقيلة لكن ثمة في قلبه أمنية أثقل. حاول قدر المستطاع أن يخفي ابتسامة عريضة على وجهه أثناء توديعه لبناته ليبدو أمامهن أنه حزين لأنه سيغيب عن البيت مرة أخرى. ورغم أن وجوده في البيت لا يختلف كثيرًا عن غيابه عنه، إلا أن البنات بحكم طبيعة الإناث العاطفية لم يحتملن مرارة لحظات الوداع، فبكين.. ولو علمن ما كان يدور في خلده لذرفن الدموع بغزارة أكثر، ولما كفت العيون عن البكاء!

الصحافي

الاكتئاب، اليأس، القنوط والإحباط، مشاعر تكالبت على صادق عقب إقالته من العمل، وكادت أن تودي به إلى الجنون. وفوق ذلك، فإن المسكين، بعدما قُبض عليه متلبسًا، لم يسلم من شماتة والده به بين الحين والآخر. لم يصبر، وعزم على ترك المنزل والانتقال للعيش مع أحد أصدقائه في غرفة صغيرة، في الحي نفسه وبالكاد تسعهما الاثنين. عندما كان يجمع ملابسه داخل حقيبة السفر الصغيرة ابتسمت والدته؛ ربما ظنًا منها أنه عازم على السفر لعمل أو وظيفة ما:

"أين قدك سايري هذه المرة"؟

سألته وهي ترتب له الملابس في الحقيبة.

"سايري الجن." رد بغضب.

"أها؟ والإنس ماهم؟"

أغلق الحقيبة وأجاب:

"الإنس ما بش فيهم خير."

أن تعيش بين أناس غرباء خارج وطنك هو أمر مؤلم ومحزن، فكيف بمن يعيش غريبًا في وطنه وبين أهله! طبع قبلة على جبين والدته، قبل أن يغادر، وودعها بحزن.

عادت أيامه كما كانت في السابق، متشابهة، ولا شيء فيها سوى الملل. لكنه لا يفوت يومه دون أن يخرج بفكرة لقصة تثير الجدل. خرج هذا الصباح من بيته نشيطًا ولكنه لا يزال ببجامته. راح، كعادته إلى صاحب الاتصالات يسأله عن آخر مكالمة تجسس فيها على الفتاة "الغنوج"، ذات الرابعة عشرة، واستمع للرجل وهو يحكي له عن الكلام الجريء الذي يثير ما لا يثار، ويشرح كيف أن تلك المراهقة تتأوه عبر سماعة الهاتف، في بعض المكالمات، وتسمع حبيبها، في الجانب الآخر يلهث ويتأوه إثارة مثلها. مندهشًا جلس على الرصيف يشرب كأس البن، ويراقب صاحب بقالة ذي لحية حمراء وهو يتصدق على الفتيات بيده اليمنى وبيده اليسرى يتحسس ما تخبئه المتسولات تحت نحورهن.. ينتهي من شرب البن، وقبل أن يعود أدراجه إلى المنزل ينصت للسمسار المرائي بالفضيلة، ويراقبه وهو يقدح في عرض الرجل، عاقل الحارة، بعد أن أخبره للتو أنه يعتبره مثل "أبوه".

قضى صادق شهورًا طويلة بعيدًا عن أمه وأبيه، حاول فيها أن يصل إلى طرف خيط لتلك القصة التي تسببت في طرده، وعندما لم يجد ضيع أيامه في الأكل والشرب والنوم، ولا شيء آخر ذي جدوى. لم يعد الآن أمامه سوى العمل برأي والديه، وتجاهل طموحه إلى أن يهيئ له القدر تحقيقه. وفي الوقت الذي كان فيه صادق على وشك القبول بالسفر إلى القرية، والعمل مع أخيه في أرض والدهما، جاء إليه الدبعي، يحمل له أخبارًا سارة:

"وجدت لك وظيفة محترمة".

انتعش فور سماعه النبأ، وابتسامة عريضة ارتسمت في وجهه الشاحب.

"أين؟" سأله ولعابه يسيل توقًا لمعرفة الإجابة.

"في صحيفة الحقيقة".

ذهل صادق وشرد بذهنه، غير مستوعب ما سمعه للتو.

"هيييه.."

هتف الرجل لصادق، فاستفاق من شروده على سؤال صديقه:

"ألم تقل أنك تريد العمل في هذا المجال؟"

"بلى.. بلى. أريد، لكن هنالك مشكلة."

"ما هي؟"

تردد قليلاً قبل أن يقول على استحياء:

"لا أملك شهادة".

"شهادة؟"

سأله صديقه ثم انفجر مقهقهًا كأنه سمع نكتة طريفة. وضع سيجارة على طرف فمه، تهتز متأثرة ببقايا ضحكته، أشعلها وقال لصادق الذي كان حائرًا في سبب تلك الضحكة المجلجلة:

"رئيس الجمهورية نفسه لا يملك شهادة."

استطرد:

"ولا حتى رئيس التحرير الذي ستعمل لديه".

لا يزال مندهشًا، لا يدري هل يسخر منه صديقه أم أنه يضمر أمرًا آخر غير مفهوم؟ تابع صديقه الحديث:

"لا تحتاجها."

أخرج من جيبه مذكرة صغيرة، قطع منها ورقة، أخرج قلمًا وكتب عليها تسعة أرقام، ثم مد يده بها إلى صادق:

"هذه شهادتك. رقم الهاتف الخاص بالأستاذ كمال، مدير التحرير."

أدخل القلم في جيبه وأضاف:

"اتصل به غدًا صباحًا وأخبره بأنك مرسل من طرفي"، التقط صادق قصاصة الورق من يده بسعادة غامرة. نظر إلى الرقم وكأنه يقرأ كلمة مرور ستفتح له أبواب الجنة.

أخيرًا سيقول للنحس وداعًا، وأهلاً وسهلاً بك أيها الحظ المجيد.. عاد صادق إلى أناقته المعهودة، وبهندامه الجديد يمضي إلى مقر عمله رافع الرأس مختالاً بنفسه، لم يسبق له أن تمنى مقابلة شخص يسأله عن وظيفته إلا في ذلك اليوم، وقد حقق له أسامة، جاره الفضولي، أمنيته تلك. سأله:

"في أي صحيفة تعمل هذه الأيام؟"

أجابه، بافتخار، وهو ينفض من عارضيه غبارًا لا وجود له:

"لدى وكالة أنباء الحقيقة."

عمله الآن مختلف، لم يعد كاتب قصص، كما كان في عمله السابق، بل محرر للأخبار.

مريم

بما أنه ليس هناك ما يشغل مريم، في تلك الغرفة، عن إجابة أسئلة تشبع فضول عيسى للمعرفة، فالأعمال التي تقوم بها قليلة جدًا، وكل ما تقوم به هو تحضير الطعام في الصباح، وتأدية بعض التمارين الرياضية مع عيسى؛ كي لا تشل أطرافهما لقلة الحركة، تصلي الظهر، ثم تحضر الغداء، وتستغرق في مطالعة الكتب، أو حياكة ونسج الملابس حتى يحين وقت العشاء، ولا يبقى أمامها سوى أن تقرأ لعيسى قصة قبل النوم.

بسبب التكيف على شكل الغرفة لم تنتبه مريم إلى أن الجدران وزوايا الغرفة تصدأ، فأهملت تنظيفها لتترك لعيسى فرصة رؤية أول عنكبوت حقيقي في حياته.

كان عيسى قد أطفأ شمعة ميلاده السادسة، حين زاره العنكبوت لأول مرة وظهر أمام عينيه في السقف بشكل مقلوب، يتحرك لحظة ثم يتوقف لحظات ثم يتحرك من جديد. لحسن حظه أن مريم تستحم وتتحدث إليه من داخل الحمام، وهو يلاحظ ذلك الشيء على الجدار يتحرك، فرك عينيه غير مصدق، فكر لأول وهلة أنها بقعة أوساخ تشكلت على هيئة عنكبوت، لكن ذلك الشيء عاود حركته، ولكن هذه المرة متجهًا من السقف إلى الأسفل، إلى عيسى، ولو كان طفلاً آخر لاستنجد بأمه من الهلع، أما عيسى فقد انتظر وصوله بفارغ الصبر.

ظل يتعقب ويراقب تحركات العنكبوت وهو يقترب منه أكثر فأكثر، يدقق النظر إلى الأرجل والأيدي ويبدأ بالعد.

لا يشوش عليه صوت المياه الصادر من الحمام، مصاحبًا لصوت أمه التي تغني له. يلتفت عيسى برأسه باتجاه الحمام ثم يديره مجددًا إلى حيث كان فيرى العنكبوت وقد أصبح قريبًا أكثر.

"هل أفعلها؟"

يضع الريمونت كنترول بهدوء، ويمد يده مترددًا:

"سأمسكه، أخيرًا سيصبح لي صديق حقيقي."

يأتيه صوت أمه بالغناء، يردعه الخوف، يتوتر، يعيد يده إلى فمه، يقضم أظافره:

"ماذا لو لدغني؟"

يتراجع خطوة بدافع الريبة، لكن فضوله يدفعه للتقدم إلى الأمام:

"لو فعلتها، سأصبح مثل الرجل العنكبوت".

يعود صوت أمه إلى أذنه بالغناء، وقبل أن يمد يده إلى العنكبوت ليلمسه، وقبل أن يرحب به قذفت فردة حذاء بقوة على العنكبوت أرعبت عيسى، وأردت العنكبوت قتيلاً. كان عيسى ينظر إليه وقد توقفت أطرافه عن الحركة، ثم أدرك ما حدث:

"لقد مات."

قالها وراح يبكي ويرمي ألعابه ويكسرها.

احتوته أمه بين ذراعيها تهدئه:

"لم يمت."

توقف عن البكاء، ونظر إليها بفرح.

"بل نام"،

ردد مستغربًا:

"نام؟"

أكدت:

"نعم، نام.. إلى الأبد."

منذ اليوم الذي وقعت فيه الحادثة ومريم لا تتحدث عن شيء سوى ما أسمته بالعالم الخارجي، كيف يكون شكله، وماذا يوجد فيه، وكيف ستكون الحياة إذا ما استطاع يومًا الخروج من الغرفة والدخول إلى هناك.

أخفت عنه أمورًا كثيرة، وكانت في أحايين كثيرة تكذب عليه وتخدعه، لكن كل ذلك توقف في ذلك اليوم حين قررت أن تصارحه بالحقيقة وتستريح من ذنب الكتمان الذي تشعر به منذ سنوات:

"لقد حان الوقت لفتح الصندوق."

منذ اليوم الأول من ولادتها عيسى وهي تفكر في هذه اللحظة.. اللحظة الحاسمة التي ستقول له فيها بحقيقة كل شيء:

"أريدك أن تركز في كل ما سأقوله لك الآن."

بدت ملامحها جادة وهي تتحدث معه بطريقة لم يعهدها.

"انس أي شيء أخبرتك به قبل الآن، لأنه كان كذبًا"،

فاغرًا فاه ينظر إلى أمه، وهي تواصل حديثها:

"نحن لسنا وحدنا في هذا العالم، هذه الغرفة ليست كل العالم، هناك عالم وأناس كثر في الخارج".

قاطعها بالسؤال:

"أين"؟

أوضحت وهي تتلمس جدار الغرفة:

"خلف هذه الجدران."

لم يستوعب الحقيقة بعد..

"ثمة أصدقاء، وحيوانات، وأشجار."

"وسيارات؟"

"نعم.. سيارات.. كرة قدم.. وملاهٍ.. يوجد بالخارج كل شيء كنت تراه في التلفزيون."

صُعق الطفل لما سمعه للتو، وصعب عليه استيعاب الأم:

"لا أصدقك."

اهتزت ثقته بها، وهي ردة فعل طبيعية. كيف يمكنه الآن أن يصدق كلام من كانت تكذب عليه طوال حياته!

"أنت تكذبين".

"لا."

صرخت في وجهه وهي تشده من يده إليها:

"هذه الحقيقة، ويجب عليك أن تصدقني".

نسيت أنها تمسك يده بشدة، آلمته، وشرع على أثرها بالبكاء ألمًا وخوفًا من أمه التي بدت قاسية لأول مرة.. لم تدر ماذا تفعل لتهدئ من روعه، لمعت برأسها فكرة فنهضت وأخرجت من تحت الدولاب حقيبتها المدرسية التي احتفظت بها منذ الثانوية، أخرجت منها البوم صورٍ صغير، وعادت إلى عيسى المقرفص في مكانه..

"انظر."

قالت له.. فرفع رأسه ورأى وهي تعرض عليه صورة لها مع زميلاتها..

"هذه أنا عندما كنت خارج هذه الغرفة"، مدت له يدها بالصورة:

"بإمكانك أن تتأكد".

أخذ الصورة وراح يتأمل وجه أمه، فيما كانت هي تعرفه على البنات معها في الصورة: هذه ريم وتلك سعاد.. إلخ.

منذ ذلك اليوم وعيسى لا يسأل عن شيء سوى العالم الخارجي ذاك: ما شكله؟ وماذا يوجد فيه؟ وكيف ستكون الحياة إذا ما استطاع يومًا الخروج من الغرفة والعيش هناك؟ لم يعد يثق بأمه والكلام الذي يسمعه منها، إلا أنه كان يحدوه أمل كبير في ملاقاة ذلك العالم، وذلك بسبب الصورة التي رسمتها مريم في خياله.

أصبح يعيش على أمل تحقق الحلم، بانتظار ذلك اليوم الذي سيجد فيه أصدقاء حقيقيين يلعب معهم ويمرح، عالم مليء بالمُنافسين لا يجد نفسه دائمًا في المركز الأول، ومن ذلك اليوم أصبح سقف أحلامه وخيالاته يرتفع يومًا بعد يوم، وكلما انبهر في التلفزيون بشيء ما، يلتفت إلى مريم تقول له: "نعم.. ما تراه في التلفاز ستراه هناك في الخارج."

إذًا لقد دبرت مريم خطة لإخراج عيسى من هذا السجن، ولكن كيف؟ ومتى ومن سيفعل؟ ومع من سيعيش؟

في تلك الليلة زارهم العسكري. تحدثت مريم معه حول عيسى إلى أن أقنعته بما تريد، ووعدها بأن يساعدها.

الانتحاري ٥٠١

صحيح أن البلاد في الوقت الراهن تشهد حالة من الانفلات الأمني إثر الاستهداف الممنهج والمتكرر للأجهزة الأمنية وكوادرها، جنودًا وضباطًا، مما نتج عنها ظهور عصابات وجماعات خارجة عن القانون عملت على استغلال الوضع بما يتناسب مع مصالحها، فقامت كل جماعة وعصابة بانتهاك القانون وارتكاب الجرائم بشتى أنواعها. وكما لم يحدث قط أو يذكر في تاريخ صنعاء فإنها اليوم تشهد عشرات الجرائم الجنائية المختلفة من النهب والسلب والسطو والسرقة، دون أن أستثني جرائم القتل التي تسجل، كما هي العادة منذ سنوات، وتقيد باسم "مجهول"، فيدفن القتيل، بينما القاتل، في سجلات المباحث، غير معروف. لكن برغم هذا الانفلات كله فإن تعقب جندي واستدراجه وقتله بعيدًا عن أعين الناس، ودوريات الشرطة. تظل مهمة بالغة في الصعوبة، خصوصًا على من لم يتمرس القتل والإجرام مثلي أنا.. أما بالنظر للوقت المُتاح لتنفيذ المهمة فإن عملاً كهذا يُعد بالنسبة للبعض أشبه بالمستحيل، فالوقت ضيق ولا يكفي لعمل خطير كهذا، غير أنني لا أملك خيارًا آخر إزاء ذلك، فإذا كنت أريد أن أعيش ليوم آخر، عليَّ أن أرمي بكُرة الموت إلى شخص آخر، فبموت أحدهم بمسدسي أحيا أنا. ولكن إلى متى سأستمر على هذا الحال؟ فكرت بحزن؛ ربما أكرر اليوم ما فعلته بالأمس وأقتل جنديًا آخر، أقطعُ رأسه وأعود لأفكر في الضحية التي سأقضي عليها بعد غد، وهكذا دواليك، لماذا؟ هربًا من الموت؟ يا لحماقتي، إنني أموت في

كل يوم ألف مرة منذ أن قرر الحزام مرافقتي وأنا لا أشعر بنفسي، أمشي بصحبة الموت، لا أستسيغ الطعام، ولا أهنأ بالنوم.. الحياة التي أقتل الناس من أجل أربع وعشرين ساعة فقط لكل قتيل، لا أستنفع بها، بالكاد تكفي لأقضيها في ملاحقة ضحية أخرى.

هبط المساء عليَّ بالكرب، قتلتُ الجندي الثاني وسألت الرجل مرة أخرى: لماذا هو بالذات، لماذا لا تستهدفون المسؤولين الكبار؟ ولا أدري ماذا في سؤالي حتى يثير غضبه ويدفعه للقول إن هذا ليس من شأني. ألححت عليه بفضولي لمعرفة ما أقوم به، تدارك أخيرًا وقال: إن الكبار محاطون بالحراسة، ولا أحد يصل إليهم.

ما قيل ليس له علاقة بسؤالي: لماذا هؤلاء الجنود؟ ما الهدف من تصفيتهم؟ كنت أرجو منه جوابًا إن لم يكن فيه ما أطمئن به فعلى الأقل لأدرك مقاصد الأعمال التي أقوم بها. نهرني بصوت غاضب، ثم رتل الآية نفسها من سورة الكهف: "ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا"؟، وعندها وددت لو يقول: "هذا فراق بيني وبينك"، ولكن دون أن يضغط زر التفجير.

حصلت على الإجابة أخيرًا بعد أن قتلت ضابطًا متقاعدًا بالطريقة نفسها. عرفت أن الجندي الأول "لم يكن من المرتشين، وكان يعرقل الإرهابيين"، أما الجندي الثاني فقد "كشف مخطط هروب واحد من كبار الإرهابيين والمتخصص الأمهر في صناعة المتفجرات".

راعني ما عرفته، وزادني حسرة ما قيل عن الضابط المتقاعد الذي "قاد حملة أمنية قُتل فيها ستة عشر إرهابيًا".

لقد قتلتُ خيرة من حاربوا هؤلاء القتلة، ومن كرسوا حياتهم للحفاظ على أمني أنا المواطن، أيحميني وأجازيه بالقتل؟ ولمصلحة من؟ من جعل من حياتي جحيمًا!

احترت مدة طويلة. قضيت النهار بطوله وأنا لا أجرؤ على الاقتراب من أي جندي. الجنود الذين صادفتهم في طريق بحثي كانوا بائسين جدًا. تجلى ذلك البؤس في صوت واحد منهم أمام منشأة تربوية، كان يهاتف أحدًا أظنها زوجته. أخبرها أنه سيبيع كليته لأحد التجار ويحصل على مبلغ يضمن لهما تسديد أغلب الديون التي عليهما: "ثم نعود للديون من جديد إلى أن يفرجها الله". وآخر كان يناوب في نقطة أمنية وحيدًا، رأيته يشحذ المال من سائقي السيارات الفاخرة التي تمر من عنده، والثالث يجمع معلبات المشروبات الغازية ليبيعها لدى تجار الخردة ويحصل على بعض المال. تراجعت عن التربص بهم استجابة لإنسان داخلي قال لي إن هؤلاء لا يستحقون أن يُقتلوا، خصوصًا لأنهم جنود، ومن سواهم في هذه البلاد يضحون بأرواحهم فداء للوطن وحماية للمواطنين، ولا يجازون مقابل تضحياتهم سوى بالإهمال والمهانة والذل، إنهم لا يستحقون القتل لسبب كافٍ، وهو أنهم ببساطة لم يعيشوا الحياة بعد.

"هذا ليس من شأنك"، قال الرجل الغريب: "نحن من يقرر من يستحق الموت ومن لا يستحق، وما عليك أنت إلا أن تُنفذ، واعلم أن ما نقوم به لا يُقارن بما تنجزه أنت". "أنت مخطئ". "بل هذه الحقيقة". صمت قبل أن

يقول: "حسنًا، إن كنت تصر على رأيك هذا في أن اتخاذ القرار واختيار الهدف أهون من التنفيذ، فأنا مستعد أن أتخلى عن هذه السلطة لك من الآن". "ماذا تعني؟" قال: "من الآن ستقرر أنت كل شيء، ستختار ضحاياك بنفسك وتقتلهم، إن شئت أن تعيش، وسأكتفي أنا بالمراقبة.. توكل على الله". "أتوكل على الله"؟ قلت في نفسي: وهل سيساعدني الله في قتل عباده؟! فكرت أن أضع خطة أنتهجها في تنفيذ مهماتي بدلاً من العشوائية التي أمشي عليها كيما يسهل عليَّ الأمر في المرات القادمة، وفي سبيل كسب الوقت المهدور في تعقب الفريسة أو الهدف.

والآن ضحيتي القادمة من تكون؟

شطحت بذهني أفكر في هويتها، ولم يطل الوقت حتى استنتجت وقوعي في ورطة أصعب من سابقاتها. لقد كان الرجل على حق.. قلت لنفسي إن اختيار هوية الضحية والأمر بقتلها ليس أقل صعوبة من القتل نفسه، بل إنه أصعب.. كانت مهمتي مقتصرة على قتل الجنود فقط بأمر من الرجل الغريب، أما الآن فالخيارات أمامي مفتوحة ولي كامل الحرية في اختيار ضحاياي. بالتالي استحال كافة الناس، منذ هذه اللحظة، بمختلف أعمارهم وانتماءاتهم مستهدفين ومعرضين للقتل. لم أجهد نفسي بالتفكير والتساؤل ما الفائدة من قتل العوام؟ أنا أفكر الآن في المرحلة الجديدة، وهي ما يجب عليَّ أن أركز فيه، ولا شيء آخر يخطر في بالي الآن سوى الضحية التالية.. الضحية التي قد تكون امرأة، شيخًا، شابًا، عجوزًا، ومن يدري؛ وربما يكون طفلاً..

طفل؟ لا، لا يا الله. كيف لي أن أفكر في.. وخزني ضميري.. ما الذي دهاني؟ أدركتُ فداحة الأمر. يغمرني الآن ندم لا آخر له، أنظرُ إلى الساعة في يدي لأعرف كم تبقى من عمري. نعم، أصبحت أدرك قيمة الوقت كما لم أكن في حياتي يومًا. والآن تبقى في رصيدي عشر ساعات وسبع دقائق بالضبط، وهو وقت ضيق بلا شك، خصوصًا بالنسبة لشخص مثلي تنتهي حياته عند الثانية الأخيرة في ساعة العد التنازلي هذه. بعد هنيهة فكرتُ مجددًا أنني لا أريد قتل أحد، لكن، ماذا أفعل؟ لا خيار لديَّ، إما أن أقتُل أو أقتَل، ولا أحد يتوقع مني إلا أن أفعلها، من يجرؤ على النظر في عين الموت؟ لا أحد.

ألا يتقاتل الناس في ما بينهم دائمًا من أجل البقاء؟ ألا يفعلون ذلك! حسنًا، أنا إنسان وأفعل مثلهم، أقاتل من أجل أن أبقى، ولكن بالطريقة التي تناسبني. لم أجد مبررًا مقنعًا لما أود القيام به سوى الثأر والانتقام ممن تسببوا في جلب العذابات والمصائب لي ولأهلي، ولكل من أحب.. سأقتص للحزانى والمظلومين، وكل عليل بعد القصاص سيشفى. إن الفرص لفعل الصواب تسنح مرة وتتكرر مرة أخرى فقط، ليست هناك ثالثة، وفرصتي لتحقيق العدالة حانت ولست غبيًا كي أضيعها مجددًا. تجنُّبي الانغماس بين الناس والمشي في الأسواق والشوارع المزدحمة إن دل على شيء فإنه يدل على أنني لا أريد أن أتسبب في قتل أحد، وإن حدث وقتلتُ أحدهم فإن السبب يعود إلى أن القدر لم يترك لي خيارًا آخر. أنا لستُ سوى دمية مسلوبة الإرادة يُحرك خيوطها شخص غريب، وليس لي الحق في اتخاذ القرارات التي اتخذتها منذ

تعلق الحزام بي.. هذه مشيئة الله، كما قال الكهل الطيب، ولا يحق لأحد أن يلومني أو يسائلني سواه. وعندما يفعل سأقول له: من يجرؤ على تغيير مشيئتك؟

المصعد

"هل سنخرج من هنا"؟

تساءل الملحد وهو ينكس رأسه يائسًا. الهواء في هذا المكان الضيق بدأ ينفد، والطبيبة تحرك كفيها أمام وجهها متضايقة من الحر. ثنى الصحافي الجريدة وراح يقلد الطبيبة.. الملتحي تحرر من قبعته البيضاء الصغيرة ووضعها تحت إبطه. كنت أشعر بالاختناق بعض الشيء، وكدتُ أعبِّرُ عن هذا لكن الملحد سبقني. قال إنه يشعر بالاختناق ويخشى أن يستمر بقاؤنا هنا مدة طويلة. أضاف بحزن:

"لا أريد أن أموت مختنقًا".

"ولا أنا." قالت الطبيبة.

أفلتت مني ضحكة دون قصد. نظر الجميع إليَّ يستفسرون سبب ضحكتي. قلت لهم متسائلاً:

"معنى ذلك أنكما تفضلان الموت محروقين بالنار أو ذبحًا بالسكين أو بسيارة مفخخة"؟

ورحت أعدد لهم طرقًا مختلفة للموت حتى أدركوا أن كل الطرق مكروهة ما دامت تؤدي في آخر المطاف إلى الموت. كانت لسان الملتحي تتحرك مع حركات إبهامه وسبابته وهو يرتِّل آية من القرآن. قلت في نفسي: هذا إن وضع أمامه خيار لطريقة الموت، قطعًا سيقول: أريد أن أموت وأنا ساجد.

مر على تعطل المصعد بنا أكثر من ساعة وعشرين دقيقة، بدأ الهواء ينفد، وارتفعت درجة الحرارة. لم يعد الملحد يحتمل البقاء بالبدلة التي يرتديها. قال: الأمر أصبح لا يطاق. وأخذ يفعل ما يجب عليه فعله، تحرر من الكوت، وضعه على الأرضية بجواره، ثم قام بفك ربطة العنق، وخلع قميصه، أبيض اللون، ولفه بإهمال مع الكوت، تاركًا ربطة العنق الحمراء تتدلى على صدره. استل نفسًا عميقًا وهو متربع على الأرض وتنفس بصعوبة، قال له الملتحي ناصحًا وهو يمسد لحيته: "استمتع بحرارة الجو هنا يا زنديق، فالحرارة في الجحيم لا تطاق".

"تتحدث كأنك تملك تأشيرة الدخول." قلت له.. وحاول الملحد أن يطمئننا بطريقته. قال:

"لن أموت وحدي.. كلنا سنموت.. كلنا".

صدق في قوله. لو بقينا عالقين هنا طويلاً فالجميع سيموت، وبطريقة عصرية تُكرّم الضحية بلقب الـ "شهيد" ولن يكون الملحد، بإلحاده، استثناء..

"تفاءلوا بالخير تجدوه". نصحه الملتحي:

"لابن آدم ثلث ما نطق".

"وثلثين للإله يفعل بها فينا ما يشاء".

قال الملحد، ثم أخرج من جيبه منديلاً ليمسح به جبينه، ولم يتوقف عن الهذيان.. استمر يهذر ويقول إن بقاءنا في هذا الشيء قد يطول لساعات

طويلة، ومن يدري ربما لأيام. والمخافة هي أن الهواء هنا سينفد لا محالة. قال بيأس:

"وعندها.. كلنا سنموت".

حاولت الطبيبة تهدئة الملحد القلق إزاء ضيق التنفس الذي بدأ يشعر به، وطمأنته بأن الأمور، مع الصبر، ستكون على ما يرام. بإيماءة منه أشار بعدم اقتناعه، لكنها أصرت على التخفيف من توتره، وبلكنة أكثر ثقة دعمت كلامها بالقول إنه لم يسبق لها أن سمعت أن هناك من مات بالاختناق في المصعد.

استفزتني كلمة "الصبر"! لا أحد يصبر ويوافق على المكوث في مكان يزوره الموت قريبًا. قاطعتها وقد نفد صبري وزاد قلقي، موجهًا كلامي للجميع بأننا لو لبثنا عالقين في المصعد لساعة أخرى فإن حياتنا ستكون، حينها، على المحك.. أكدتُ لهم:

"إن لم نمت بالاختناق."

قطعت كلامي تاركًا الآذان مصغية لي، والعيون شاخصة تنظر إليَّ بخوف، وأنا أرفع قميصي بحذر شديد، كاشفًا لهم عن الحزام الناسف:

"سنموت بهذا."

الملحد

الشيء الوحيد الذي دفع عبدالله لترك عزلة أقلقت والديه، هو أن الحزن لن يعيدها للحياة من جديد، لن تبعث الدموع جثتها الهامدة للحياة، ولن تبث أشعاره الروح فيها بعد أن انتزعها عزرائيل. عاد إلى حياته السابقة تدريجيًا، وتعرف على فتاة لمست شغاف قلبه حبًا، وكانت تعاني من الموت وتتمناه مثله. قال لها ذات مرة، وهما يتحدثان عن الأمر بحزن: "طالب الشيء دائمًا لا يناله، كذلك أنتِ وأنا، كلما طلبنا الموت كرهًا في الحياة تعلقت بنا الأخيرة، وفر الموت منا هاربًا. لا أحد يحصل على ما يريد إلا في المنام.. لكن.. أنا.. أنا لا أحصل على مبتغاي حتى حين أحلم.. لماذا؟"

وفي اليوم نفسه، نهارًا، كاد يحصل على ما تمناه، لكنه بدافع الخوف هرب، وحين أدرك ألا مفر من الموت أخذ هاتفه وقام بتدوين كلماته الأخيرة على صفحته في موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك":

"ومن الحب ما قتل"، لعل قائل هذه العبارة قُتل بعدها على الفور، كما سأقتل أنا الآن في ظروف لن تكون غامضة. سأكشفها الآن هنا قبل أن يصلوا إليَّ حتى لا أُقتل وتصير قصة مقتلي متداولة في روايات عدة مختلفة ومختلقة، تتكاثر وتُحرَّف مع تزايد عدد مستمعيها...

"اخرج يا ابن الحرا..."

طلقات تخترق باب الغرفة وتتناثر في أركانها الآن، أختبئ داخل مكتبتي.. الكتب تحمينا من كل شيء حتى من الرصاص!

أتمنى ألَّا أموت قبل أن أكمل قصتي. قبل قليل فتحت باب البيت وكنت أنوي الذهاب إلى منزل أحد الجيران لأساعده في التجهيز لمراسيم دفن أبيه الذي توفي قبل ساعات. رأيت عددًا من المسلحين أمام المنزل ظننت أنهم أقرباء جاري، وجاؤوا لحضور العزاء، لكن سرعان ما خاب ظني حين سمعت صوت طلقة أصابت الجدار، وتطاير بعض من كسور الياجور على وجهي.

"اقتلوه." صاح أقصرهم:

"طهروا عارنا بدمه".

لم ينطق باسمي هذا الذي صرخ، ولكن اتجاه الرصاصة دل على أنني المقصود، أغلقت الباب على الفور وجريت صاعدًا إلى غرفتي، بتلك السرعة التي تتملك أحدًا حين يهرب من يد الموت. ليس في المنزل أحد، لست أفكر في شيء سوى كيف أنجو من هؤلاء.

"صوِّب على المغلقة".

اقترح أحدهم ثم خالفه آخر:

"نكسر الباب!"

بعد دقيقة من الطرق بالأسلحة والركل والرصاص، تمكنوا من الدخول وكنت قد وصلت إلى غرفتي واختبأت بين الكتب. لم أجد طريقة لأهرب بها،

لذلك رأيت أن أكتب لكم، لعل أحدكم ينقذني مما أنا فيه. قطعًا لن يفعل أحدكم شيئًا حيال ذلك، ستقولون إنه موقف غير مشرف أن يُلاحق أحدهم لأنه أحب فتاة وأمضى معها بضع دقائق مليئة بالحب. إذا مت لن يحضر مراسم دفني سوى أعدائي كي يضعوا أحذيتهم على قبري ويبصقوا عليه وينهالوا عليَّ بالشتائم، الأمر الذي لم يستطيعوا فعله وأنا حي.

كل ما تمنيته هو أن أمسك يدها، ونتسكع في هذا الشارع وذاك، أو أضع قبلة على جبينها، وقد حققت ما تمنيت في زمن لا يحقق أحد فيه أمنياته سوى الموتى، ولا تسألوني كيف.

"أشهد ألَّا إله إلا الله وأشهد ألا..."

في الوقت الذي كاد عبدالله يصبح في عداد الموتى، داهم الجيران المنزل ودخلوا بأسلحتهم وأخرجوا المسلحين بالقوة، قبل أن يصلوا إليه.

الملتحي

سافر الشيخ أيوب من صنعاء، جوًا، إلى مكة المكرمة وهو يفكر في الكلام الذي سيبتهل به أمام الله. ظل هذا هاجسه الدائم طوال رحلته القصيرة التي لم تستغرق أكثر من ساعة واحدة. لم ينس هديته لأبو محمد حالما يصل إلى هناك. أبو محمد صديقه القديم، وسيقيم معه في منزله طوال فترة الحج. جلب لأبو محمد دبة عسل بلدي كبيرة الحجم، من مزارع مدينة دوعن، عسل أصلي، من ذلك النوع الذي لا يتذوق طعمه إلا من كان له رزق وفير من التجار الأثرياء وكبار المسؤولين، لغلاء ثمنه وجودة فوائده، كانت الدبة التي وضع فيها العسل ملفوفة بورق مقوى بدقة وإحكام كي لا يفسد، لم يكن يخفى على الشيخ أيوب أن أبو محمد شرهٌ كثيرًا لمثل هذا النوع من العسل، ولا شك في أن هذه الهدية ستجعله في غاية السعادة والامتنان.

ما إن وطئت قدماه أراضي مكة اطمأن قلبه وغمره الارتياح. انتهى من إجراءات خروجه من المطار وفي الخارج وجد صديقه أبو محمد، مع ابنه، يقفان أمامه مهلِّليْن بوصوله بالسلامة.

وصلوا إلى بيت أبو محمد، وكان البيت من واجهته الكبيرة والمزخرفة بالفن المعماري أشبه بقصر فخم، أما من الداخل فهو قصر حقيقي، بلاط أميري عليه مفروشات من السجاد الإيراني، وسرايا وتحف يبدو من منظرها كأنها مطلية بالذهب، كل ذلك لم ينتبه له الشيخ أيوب، ليس لأنه أَلِفَ رؤية مثل

هذه القصور، بل لأنه كان مرهقًا من السفر، وجسمه بحاجة إلى الراحة التي لن يجدها إلا في النوم. وقد لاحظ أبو محمد ذلك على ملامح الشيخ، وطريقة كلامه معه، فسارع لإدخاله فورًا إلى غرفة جهزت بعناية وهو يرحب به: "ارحب على العين والراس يا شيخ أيوب، البيت بيتك".

بينما كان محمد يدخل الحقائب إلى الغرفة اقترب أبوه من الشيخ، جلس بجواره وقال، وهو يربت على ظهره:

"سأتركك الآن لتنام، لا بد أنك مرهق".

وقبل أن يغادر التفت إلى الشيخ وذكَّره:

"تعشَ الآن ثم نم، ولو احتجت أي شيء داعيني."

يبدو جليًا على ملامحه أنه مرهق، وعيناه مثقلتان بالنعاس، غير أنه لم ينم. حاول لكنه لم يستطع. كان غارقًا في هاجسه الأوحد والمقصد الذي جاء إلى هنا من أجله، متمنيًا تحقيقه، وهو التكفير عن كل ذنوبه. لقد جاء إلى مكة ليعود إلى صنعاء خاليًا من الذنوب التي بسببها، كما تقول والدته، لم يرض الله عنه، ولم يرزقه بمولود ذكر. لم يستطع التوقف عن مساءلة نفسه طوال الليل: "كيف سأقابل الله وأنا مذنب؟ هل سيقبل توبتي؟ هل سأرزق، بعد أن أكمل الحج، بصبي؟!"

غرق في بحر من التساؤلات والمخاوف، ولما أوشك على النوم صدعت مآذن المدينة بالتكبيرات، ولم تمر سوى لحظات قليلة حتى دخل عليه أبو محمد وناداه أن: "حيا على الصلاة".

في الصلاة قرأ الإمام آيات من الجزء الأول من سورة آل عمران، وكان الشيخ أيوب خاشعًا بكل جوارحه، وهو يسمع قوله تعالى: "يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ. قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم."

بكى من قلبه حين سمع الآية الأخيرة. ذكرته بآثامه، بكى لأنه مذنب، ولأن الله ساتر عليه بالذنب الذي ارتكبه في حق العديد من الأشخاص. ما زالت تلك الذنوب معلقة في ذمته.. ناجى ربه في تلك اللحظة، وأقسم أن يعود إلى صنعاء وأن يكون أول ما يقوم به هو التكفير عن ذنوبه كلها.

يعود الشيخ أيوب إلى خشوعه، ولا يزال الإمام يقرأ: "قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ. إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى.."

تذكر بناته وزوجته، وقال في سره: "أما زوجتي فوضعت خمس إناث."

يعود صوت الإمام مخترقًا أذنه وقلبه: "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ".

شهق، تذكر أمنيته في إنجاب ذكر، تأوه قبل أن يتمتم:

"وليس الذكر كالأنثى.. ليس الذكر كالأنثى"،

"وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ."

"أنا أيضًا أسميتها مريم ولكن."

عاد لتمتماته:

"ليس الذكر كالأنثى.. ليس الذكر كالأنثى.. وليست الأنثى.."

ربما لم يستوعب من الصلاة ركعة، واستغرق يهذي على هذا النحو البائس حتى صدعت مكبرات الصوت في الحرم بصوت الإمام وهو يختتم الصلاة:

"السلام عليكم ورحمة الله."

"السلام عليكم ورحمة الله."

الصحافي

خرج صادق من مكتب رئيس التحرير، صفق الباب خلفه، بخفة اللا مبالي، بينما ما زال صوت المدير المتذمر يلاحقه بالتوبيخ. أصلح هندامه أمام الباب، دس يده في جيبه وأخرج منديلاً مسح به قطرات العرق التي تجمعت في جبينه وتجاهل نظرات الموظفين المشفقة له، تظاهر بالرضا، كعادته، كأن شيئًا لم يحدث، ثم حرك كتفيه بطريقة مسرحية، وجرجر خطاه عائدًا إلى مكتبه.

على ما يبدو فإن فرحة صادق وسعادته بإيجاد عمل في المجال الذي يحب تحولت إلى خيبة أمل وتعاسة منذ الأسبوع الأول له في الصحيفة وتحت إشراف المدير الجديد. لم يخطئ الموظفون حين تحدثوا عنه، ذات حوار بسوء. قالوا إنه طاغية، وإنه سيكون سعيدًا لو كان مراسلاً مع النازيين في الحرب العالمية، تسعده الأخبار الملطخة بالدماء، وإذا لم يجدها صب جام غضبه على المراسلين، المحررين، وكتاب المقالات. لم يجد صادق لمن يبوح بهمومه هذه سوى لحبيبته سلا. قال لها، حين سألته عن الوظيفة الجديدة:

"تخيلي، يا معشوقتي الفاتنة، أنا الذي أكره الموت أصبحت من أشد محبيه. أصبحت أبحث في هذه المدينة وتلك، تحت هذه الأنقاض وخلف ذلك الركام عن جثة لا يُعرف قاتلها، دماء تسيل بلا توقف، أو رصاص لا يكف عن الغناء.. فقط لأصيغ خبرًا في الصحيفة وأنال رضا رئيس التحرير ليكف عن الصراخ وإلقاء الويلات عليَّ".

"لا بأس."

قالت سلا، وهو، على ما يبدو، لم يعد ينتظر عزاء من أحد، تجاوز حزنه وأخبرها أن ثمة تقريرًا مهمًا كتبه مؤخرًا، وهو خطير للغاية يكشف عن ممولي الجماعات الإرهابية في البلاد، لكنه لم يتجاسر على تقديمه للمدير ويعرض عليه نشره في الصحيفة:

"لماذا؟!"

"أخشى أن نتعرض، هو وأنا، لخطر الاغتيالات.. تجار كبار، ومسؤولون وشخصيات عسكرية في الدولة متورطون في كل هذا".

شجعته، رغم الإحباط الذي بدأ يتملكه، وقالت له تحمسه:

"إذا كنت صحافيًا تسعى لكشف الحقائق ولم تتلق تهديدات، ولم تجد يومًا مسدسًا مصوبًا نحو رأسك، فاعلم أنك لا تؤدي عملك بمهنية".

انتهى صادق من كتابة تقريره الصحافي الأول. عنونه، في أعلى الصفحة الأولى بالخط العريض: "الأهداف القادمة لتنظيم القاعدة في صنعاء.. من الرابح الأكبر من هذه العمليات ومن يمولها؟!"

كتب التقرير بعناية، وبعد أن تأكد من اكتماله، وصحح بعض الأخطاء اللغوية، بمساعدة زميله محمد، جر نفسه باتجاه مكتب مدير التحرير ليعرضه عليه.

دخل إليه وهو رافع الرأس، ألقى عليه التحية، وبلا أي مقدمات، وضع صادق أوراق التقرير أمام مدير التحرير. رجع خطوتين إلى الوراء ليقف

أمامه بثقة ظاهرة على ملامح وجهه، مضمرًا في قلبه شعوره بالرهبة. راقب ملامح المدير وتقلصات وجهه التي أخذت تتبدل بين برهة وأخرى.

مرت دقيقة تقريبًا استغرقها المدير في إلقاء نظرات سريعة على التقرير، وبابتسامة خجولة ظهرت على ثغره، وهو يقلب الورق بين يديه، بدا أن التقرير نال استحسانه، وهذا ما جعله يقول وهو يهز رأسه مهمهمًا:

"ممتاز.. ممتاز جدًا."

رفع المدير رأسه، ثم نظر إلى صادق بإعجاب، وقال:

"عمل جبار. ولكن.."

ارتسمت في وجه صادق ابتسامة عريضة. تنفس الصعداء، واسترخت أعصابه المشدودة بعد أن سمع ثناء المدير عليه وكاد يطير فرحًا، بيد أن كلمة "لكن" أعادت الارتباك إلى قلب صادق مما جعله ينبض بشدة.

"ولكن ماذا؟!"

سأل متلعثمًا وقد تبددت نشوة النصر من قلبه. قال المدير، وهو يشير بقلمه الأحمر إلى بعض السطور في الورقة:

"انظر هنا."

اقترب صادق خطوتين ودنا من التقرير يحملق فيه متسائلاً:

خط رئيس التحرير بالقلم على بعض السطور ودمدم:

"هذا الكلام قد يفتح علينا أبواب جهنم."

احتج صادق بشدة:

"نحن لا نتجنّى على أحد."

"وهذه هي المشكلة."

"...!"

"قول الحقيقة أو نشرها في بلد تعمه الفوضى يُعد جريمة يعاقب عليها الصادقون مثلك.. هل تفهمني؟"

ابتلع صادق غصته وقال:

"ولكن المبادئ تحتم علينا.."

قاطعه مدير التحرير بسخط:

"قلت لك هؤلاء أصحاب مناصب عليا ورجال أعمال كبار.. ومن يحاول تشويه سمعتهم لن يرحموه، ونحن مش قدهم، لا أنا، ولا أنت.. ولا المبادئ."

كانت عينا صادق تنظران إلى مديره بازدراء، لأنه شعر بخيبة أمل صادمة، فمن كان يحترمه إلى وقت قريب باعتباره شخصًا مهنيًا وحريصًا على حقيقة المعلومات التي تنشرها الصحيفة، استحال في عينيه مجرد حثالة وبائع ذمة، بقي صادق شاردًا هكذا بينما كان الرجل لا يزال يسرد نصائحه:

"المبادئ مثل الشِّعر، نقرأها في الكتب فقط، أما الواقع شيء ثانٍ. صحيح أنها تريح الضمير، لكنها لا تريحنا نحن.. لن تشبع بطون أطفالنا، ولن توفر لنا الأمن والأمان، بالعكس تمسكنا بالمبادئ هذه يعرض حياتنا للخطر."

وقبل أن ينبس الصحافي بكلمة أغلق المدير ملف التقرير، وعلى غلافه كتب بالخط الأحمر (مذكرات صحافي مهني)، ثم مد يده بالتقرير إلى صادق وقال كمن يختتم كلامه:

يستحسن أن تخبئها في مذكراتك، وإن شئت انشرها بعد زمن.

ابتسم صادق بحزن وهو يأخذ التقرير الذي صب فيه كامل جهده وقال، وهو يهم بالمغادرة:

"هل من ملاحظة أخرى؟"

"أكيد.. يا حبذا لو تركز على مواضيع أقل حساسية من هذه.. وعيش.. عيش وخلينا نعيش."

مريم

ليس بوسع أحد تخيل مدى الحزن الذي شعرت به مريم، وكمية الدموع التي ذرفتها ليلة اتفاقها مع العسكري على إخراج عيسى من الغرفة إلى العالم الذي أسمته بالـ "الخارجي". أرادت أن ينعم بالحياة كبقية الأطفال في هذا العالم.. سيوصله العسكري إلى المستشفى، ومن هناك سيتم تحديد مصيره بقرار من الآخرين وهم أربعة، تعرفهم مريم جيدًا.

لا أحد غيرهم يعرف قصتها. لكل منهم قطعة من الأحجية، وباجتماعهم تكتمل وتفك عقدتها. فإن رفض أبوها، الشيخ أيوب، أخذ عيسى وتربيته باعتباره حفيدًا له فقد توافق على تبنيه الطبيبة التي لم تنجب أبناءً. فإن لم توافق هي أيضًا فلا بد لعبدالله أن يرعاه؛ فهو ابن الفتاة التي أحبها، سابقًا. المهم بالنسبة لها أن يخرج عيسى من تحت الأرض ويعيش حياته هناك في الخارج.

لولا أن نوم عيسى ثقيل لاستيقظ فزعًا ليسألها عن سبب بكائها. ستجيبه، كالعادة، بقولها، وهي تمسح دموعها بالمنديل: إنها دموع الفرح. كما قالت له، في صباح اليوم التالي، عندما خرج عيسى، إلى العالم الخارجي.. العالم الحقيقي.

بدأ المنبه بالرنين معلنًا عن حلول يوم لا يختلف كثيرًا عن الأيام الماضية، فكل الأيام- حين تعيش في مكان واحد- متشابهة، ولا شيء جديد سوى المزيد من البؤس والملل. تسللت يد الأم الناعمة من تحت اللحاف لتربت على طفلها عيسى وتهمس في أذنه بحنان: "اليوم ستخرج إلى العالم يا عيسى."

غالب النعاس الباقي على جفنيه، وهو يصغي لكلمات أمه التي بعثت فيه نشاطًا وفرحًا يغريه لترك فراشه والنهوض إلى الحمام ليغسل وجهه وأسنانه، ثم يرى ما يجب عليه فعله في هذا اليوم المختلف.

تمطى قليلاً، رفع اللحاف ببطء، احتضن أمه للحظات، وسمعها تبكي. نهض وهو لا يزال يتثاءب، التفت يجول بعينيه ناظرًا إلى ما حوله ليشاهد المنظر نفسه الذي اعتاد رؤيته منذ أن ولدته أمه. جدران الغرفة الأربعة لا سواها، حيطان صامتة، لكنه، برسوماته، وملصقات شخصيات أبطال الكرتون التي علقها عليها جعل من الجدران عالمًا له بُعد آخر، وحياة خاصة بالأطفال فقط.

لم تشأ أن يلاحظ عيسى حزنها، لكنها لم تستطع منع نفسها من البكاء. ساعدت ابنها في ارتداء ملابسه الجديدة التي سيقابل بها الناس في الخارج، وهي تنشج وتصطنع ابتسامة يكسوها الحزن. احتار وهو يمسح دموعها بباطن يده. سألها عن سبب الدموع فلم تجب. تركته وذهبت للحظات وعادت وفي يدها قطعة بلاستيكية مشطت بها شعره وتظاهرت بالانشغال، وكأنها لم تسمع سؤاله. ألح عليها بالسؤال، ولكن بعبارة أخرى:

"هل أنت حزينة؟!"

أجابت بابتسامة مصطنعة، تفضحها الدموع:

"لا يا صغيري."

شكك في إجابتها. قال ويده تتحسس دموعها:

"لكنك تبكين؟"

تبعد يده المبللة بالدموع، تقبل باطنها: "لا تقلق، هذه دموع الفرح".

قطب حاجبيه مستغربًا، لم يسبق له أن سمع عن دموع من هذا النوع.

"ماذا يعني ذلك؟"

"يعني أنني اليوم سعيدة من أجلك لأن"....

صوت انفتاح باب الغرفة الخارجي قطع الحوار بينها وعيسى. لم تكمل ما أرادت قوله. فتح العسكري الباب، وكان بوسع عيسى سماعه وهو يردد: الله الله. الكلمة التي يرددها كلما دخل إلى الغرفة منبهًا مريم قبل دخوله. سارعت مريم وارتدت الحجاب، لفته حول رأسها وغطت شعرها بعناية ثم عادت إلى جوار عيسى لاستقبال العسكري.

الباب الذي لطالما كان بوابة العبور الغامضة، والفاصلة بين عيسى، السجين مع أمه في الغرفة، وبين العالم الثاني، ها هو يفتح في وجهه لأول مرة، وصوت صريره كأنه يقول لعيسى، بلغة الصدأ: "رحلة سعيدة أيها الصغير".

مع كل درجة يصعدها مع العسكري إلى أعلى، كان عيسى يفكر بأن الشمس بانتظاره، وكيف أن السماء الزرقاء ستكتب اسمه على الغيوم مسبقًا بعبارة ترحيب. سوف تحفه الطيور وتغني له وتذهب به الخيول مع العسكري في

نزهة إلى النهر، ليرى هناك المكان الصغير حيث تستحم السنافر، بيد أن كل ذلك، لسوء حظه لم يحدث.

لما خرج عيسى إلى السطح كان العالم متشحًا بالظلام ولا شيء سواه، وحفيف الرياح المتصادمة بالأشجار أرعبه، فجعل يمسك بيد العسكري بشدة كأنه يخاف أن يفلتها فيضيع، وما مصير السائر بين كل هذا السواد سوى الضياع، خصوصًا من لا يعرف شيئًا عن غدر من في هذا العالم.

كانت بداية غير مشجعة للصغير، خاب أمله، ولوهلة التفت إلى الباب الذي خرج من خلاله وهمس بخوف: "أريد أن أعود"، وكرر القول للعسكري، فلم يستجب له وشد على يده، وبين الأشجار فارعة الطول ووسط أصوات صرا صير الليل التي تتردد في كل مكان، مضى به إلى حيث لا يدري.

الانتحاري ٥٠١

وُضعتُ في موقف حرج، وأدركت أنني كمن استجار من الرمضاء بالنار. جهلي بطبيعة عمل الآخر جعلتني أستخف بما يقوم به. بدأت في المرحلة الجديدة بالبحث عن فريستي هنا وهناك، واضعًا هوية الهدف ومصيره في الاعتبار. كنت أبحث عمن أضمن له بعد مماته جنة لا جحيمًا، نعيمًا لا عذابًا؛ لأكون مخلصه من هموم الحياة، ومرسله إلى راحة الآخرة الأبدية. صعب عليَّ ذلك.. وجدت أماكن عديدة دخلتها، كان فيها الكثير من البؤساء، يتجلى ذلك بوضوح من ملابسهم وملامحهم الشقية، كان أمرًا مبشرًا، لكن المخيب للآمال أنهم بدوا آثمين، فإذا قتلت واحدًا منهم فهذا معناه أنني عاجلته بعذاب أشد من العذاب الذي هو فيه. دخلت مقهى إنترنت لأتصفح صندوق الرسائل في حسابي الخاص لدى فيسبوك، أتوق لقراءة شيء يأتي من إلهام، عبارة حب، رسالة تطلب مني فيها الرد، وأخرى ترجوني بمهاتفتها فور قراءتي للرسالة.. سرحت كثيرًا في ذكريات جميلة معها، مُبكيها أضحكني، وأبكاني مُضحكها. لفت انتباهي صوت يافع يعمل على الحاسوب التالي. سمعته يقول عبر هاتفه للمتصل ما معناه: "دعني أفعل وأرَ ما أشاء، فالموت آتٍ، وهذه حياتي." قررت قتله لأنه كما يدعي مستعد للموت. لكن ما رأيته خلال مدة انتظاري له حتى يخرج جعلني أعدل عن قراري. قلت في نفسي: إن هو مات، في هذا العمر على يدي سيجمع كل من في هذه البلاد على أنه مات شهيدًا، لكن العاقبة ستكون غير ذلك، فهو كما

أظن مدمن مشاهدة الأفلام الإباحية، عرفت ذلك من خلال تعليق أصحابه عليه، ويبدو من المكالمة التي تلقاها أنه غير مطيع، عاق، والعاق توعده الله بالنار وبئس المصير. خرجت ووجدت رجلاً يأكل من بقايا الطعام في القمامة. في قتله ثواب وخير. ثم قلت: لا، الدين حرم القتل. في مكان آخر شاهدت امرأة مسكينة تلحق بالبكاء بعد ابنها الذي صفق الباب خلفه وغادر غاضبًا غير مبالٍ بقولها: "الله لا ردك"، وددت تحقيق دعاء الأم بقتل ابنها، لكني لم أشأ ترحيله لمحكمة السماء، لعله يتوب قبل أن يقبض ملك الموت روحه ويقدمه إلى حيث لا ينفع فيه الندم ولا البكاء.

تذكرت الرؤيا التي شاهدتها في منامي يوم نمت في اللوكندا. كوابيس مرعبة تلك التي رأيتها أول ليلة، خنقتني، جعلتني أستيقظ فزعًا والعرق يتساقط مني بغزارة. لم أجد أحدًا سوى الكهل الطيب مستيقظًا ذلك الوقت، جاءني بكوب ماء وربت على كتفي يهدئ من روعي. كان المصحف في يده لا يغادره. حانت ساعة صلاة الفجر، افترش سجادة على الأرض، وبعد أن سألته لماذا لا يذهب للمسجد، قال من دون أن يلتفت إليَّ: "أفضل الصلاة، هنا، في اللوكندا وأنا خاشع، على أن أصلي في المسجد وأنا أشك في المصلين بجواري وأفكر أي واحد منهم سينفجر بنا بعد التكبير، في زمن لم يعد فيه التكبير للصلاة فقط."

يا له من مسكين، هجر المسجد هربًا من أصحاب الأحزمة الناسفة وساقه القدر ليصلي معي، أنا الذي قد أنفجر في أي لحظة. ما هذه الحياة الغريبة تأتي

بغتة دون أن ندرك كيف، وترحل فجأة قبل حتى أن نفهمها، لا أمل لنا فيها سوى أن نعيش بسلام. بسلام؟ إن كل فرد في هذا العالم المريب ليس إلا عدو الآخر بطريقة أو بأخرى، والأكثر فداحة من هذا أننا نتجاهل حقيقة أن بعضنا لبعض عدو. ولو تصالحنا مع أنفسنا حقًا لعمّ العالم السلام، لا يعرف ذلك إلا قلة من الناس، وريثما تدرك البقية ذلك يجب عليَّ السعي في سبيل الخلاص من هذا الموت الذي يلتف حولي ويلاحقني أينما ذهبت ما زلتُ حيًّا. نعم ولكن إلى متى؟

لم يُرحني الرجل الغريب من هذا العذاب بالموت، ولم يتركني أنعم بالحياة، وضعني بين عذابين: مخافتي من أن أموت فيكون الجحيم مصيري، أو أن أحيا بقية عمري على قتل الآخرين، وتكون حياتي مرهونة بحياة شخص آخر بريء ولا يستحق أن يموت بهذه الطريقة البشعة. عندما عدت في إحدى الليالي رآني الكهل الطيب وقال لي: تبدو اليوم مفعمًا بالحياة. قلت له بحزن: "فقط من الخارج، أما من الداخل فأنا أحتضر".

نهرني وقال: مهما يكن الأمر الذي يشغلني هذه الفترة يجب عليَّ أن أتجاوزه بشتى الطرق، وألا أسمح له بأن يدفعني إلى اليأس والتفكير في الموت أبدًا. فأنا، حسبما يقول، لا أزال شابًا، ويجب عليَّ أن أترك كآبتي هذه واستمتع.

"عش حياتك."

قالها ولم يدرك مدى العجز الذي شعرت به بسبب كلماته تلك.. لو أن البردوني كان حاضرًا بيننا لقال: "فظيع جهل ما يجري، وأفظع منه أن تدري."

هو لا يعرف ما الذي أقوم به كل يوم، يجهل ما يلتف حولي، ولا يدرك أن حياتي جحيم لا يطاق، وأنني لكي أعيشها بالشكل المراد سيتوجب عليَّ قتل شعب بأكمله.

حاول أن يشجعني، ابتسمت له.

قلت بعد زفرة طويلة:

"أنا في هذه الحياة لا أعيش، أنا فقط أحاول النجاة.. ومن يدري، ربما أفشل."

في الحقيقة، كنت ميتًا بالفعل، لقد مت منذ أربعة أيام، من ذلك اليوم اللعين.

ذات يوم، وعلى غير عادته، قرر الكهل الطيب الصلاة في المسجد لأن يوم الجمعة، كما يقول، استثناء ولا تطبق عليه القاعدة التي ينتهجها. رافقته بعد إلحاح طويل، كنت أتجنب دخول المسجد خشية أن يستغل الرجل الغريب كثرة المصلين فيه ويضغط على زر التفجير، لكنني قلت في نفسي: سيحفظ الله عباده من هؤلاء الشياطين، أتراني أصبحت واحدًا منهم؟!

"الله أكبر."

وانفجر الرجل بنفسه، وبنا، نحن المصلين في مسجد الصالح أثناء صلاة الجمعة. لا شيء أسمعه سوى بقايا من صدى دوي الانفجار، تستطرد ذاكرتي صورًا لزمن كان التكبير فيه نداء للصلاة، قبل أن يستحيل نداء للموت. تمر لحظات وتتناهى إلى سمعي أصوات عدة لكلٍّ منها وقعه ونغمته الخاصة، حناجر يملأها التعب تردد: "يا الله."، يتبعها صدى أصوات

تستغيث تطلب النجدة: "أسعفوناااا". ينشغل الموت بقبض أرواح هالكة آن وقت رحيلها، وأنا حيث كنت مددًا لا أزال، عيني إلى سقيفة المسجد المزخرفة تنظر باستغراب، لا أدرك أين أنا، وماذا حدث! أحاول النهوض متجاوزًا ألمًا ينخر جسدي، أرفع نفسي رويدًا، أسعل بفعل كثافة الدخان، أستوي جالسًا ويدي على رأسي موضع الألم، أعيدها لأرى سائلاً أحمر بين أصابعي يتدفق، أستعيد وعيي أخيرًا، أنهض بصعوبة، مسندًا يدي إلى عمود المسجد الضخم، ومن بين أعمدة من دخان أستوضح ما حدث للتو. جثث متفحمة، وأخرى ما زالت تشتعل، جسد بلا رأس، وأجساد أخرى تبحث عن أطرافها، كهل يئن، طفل يبكي، ومن نجا من الانفجار، مثلي، يفتش بين الجثث عن أخ له أو صديق، يصيح أحدهم باسم ابنه، ينادي آخر لأبيه دون أن يسمعوا استجابة من أحد، أحاول الهرب زحفًا من بين الجثث إلى خارج المسجد هاربًا من موت فشل في القبض عليَّ، أتجاهل من الهلع رؤية المستغيثين بجواري بلا جدوى، يتشبث بي، جريح بترت قدماه، ورأسه ملطخ بالدماء.

"لماذا يسمح الله لهم أن يدخلوا بيته؟!"

أهز رأسي حائرًا، لا شك أن قوله "لهم" يقصد بها الإرهابيين.

يأبى الاستسلام، يكرر الكهل الطيب سؤاله:

"لماذا؟!"

أقطب حاجبيَّ، أتحرر من يده، وقبل أن أرحل تأتيه الإجابة من شخص بجواره بالكاد يلتقط أنفاسه:

"لأنه رب العالمين."

المصعد

وسط نوبات الهلع والرعب التي اعترت وجوه وقلوب: الطبيبة، الملحد، الملتحي، والصحافي، كنت أؤكد لهم أن الخطر لن يزول بالخوف، مشهرًا الحزام في خصري، ألوّح لهم بيدي أحثهم على التروي وعدم التهور، قائلاً إنه ينبغي عليهم الهدوء ما استطاعوا كي لا يحدث ما لا يحمد عقباه. على الأقل لنستغل الوقت ونركز تفكيرنا لإيجاد حل لهذه المصيبة قبل أن يفوت الأوان وينفجر الحزام، لكن أحدًا من الأربعة المساكين المصدومين بما يشاهدونه في خاصرتي لم ينتبه أو يركز للكلام، كأني أتحدث مع نفسي أو أحاور مجموعة من الصُّم. بيد مرتعشة وشفاه تيبَّست من الرعب تسمر الملتحي في مكانه يحرك المسبحة في يده، ويتمتم بالصلوات، يستغفر ويردد الشهادة كأنه يحتضر ويشاهد ملك الموت ينتزع منه روحه. بالكاد، يقف الملحد على قدميه يتمتم بكلمات غير مفهومة، ومن هول ما يجري يعجز عن منع ركبتيه من أن تتصادما في بعضهما. وإلى جانبه، يهتز كتفا الطبيبة، ومن فرط بكائها تضع باطن كفها على فمها، تحاول إسكات ذلك النشيج المتولد عن الخوف.

"إنها تبكي!"

هتف الطفل. وسأل وهو يشير إلى وجهها:

"هل هذه دموع الفرح التي أخبرتني عنها أمي؟!"

آه ما أقسى بعض الأسئلة حين لا نملك لها إلا إجابات أشد منها قسوة على القلب. أي فرح يا صغير؟ إنها تبكي، لكن تلك دموع خوف وحزن، لا

دموع فرح.. أي فرحٍ هذا الذي يأتي مع الموت؟ إنها تبكي، وماذا يملك المرء، إذا ما وضع في موقف كهذا، سوى أن يطلق العنان للدموع الحزينة ويبدأ بالبكاء تنفيسًا وتعبيرًا عن حزنه؟ تعجز اللغات كلها عن التعبير عن ذلك الشعور الذي يعتري كل واحد منهم. ذكروني بيومي الأولى مع هذه المصيبة التي تلفني اللحظة التي قيل لي فيها ستموت بعد قليل. أشفق عليهم لأنني، قبل أيام ليست بكثيرة، مررت بالموقف نفسه عندما فكرت أن حياتي ستنتهي. آه.. ما أبشع هذا الشعور، أعجز عن التعبير عنه كعجزي عن إيجاد حل بديل، أو حتى في إيجاد طريقة تخفف عنهم هول الصدمة المتولدة من الحقيقة التي صارحتهم بها. لم أملك سوى أن أذكرهم مرة أخرى بالحزام، أحذرهم إن هم أطالوا الصمت أو استمروا في البكاء رفعت أمي وحملتها إلى الزاوية، في أقصى الجانب الأيسر للمصعد. انزويت بقربها واقفًا بحيث أصبح باستطاعتي أن أراقب من مكاني تحركات البقية بشكل أفضل، وكي أطلق النار بدقة أكبر إذا ما تهور أحدهم وحاول الاقتراب مني أو الهجوم عليَّ:

"ليس لدينا وقت كاف لتضييعه في الصمت".

أخرجت مسدسًا مثبتًا في حزامي:

"يجب عليكم اختيار من يموت."

ولأنهم لم يفهموا ما أعنيه، بدأت أحكي لهم قصتي، منذ اليوم الأول من وقوعي في هذا المأزق حتى هذه اللحظة.. لحظة وقوعي في مأزق مشابه.. أوضحت لهم أنه من تلك اللحظة أصبح يتعين عليَّ قتل شخص كل ٢٤ ساعة، ولم يعد في حياتي سوى ساعتين تقريبًا.

"وإذا لم تفعل؟" سألني الصحافي..

أجبت:

"سينفجر بي الحزام، ويموت الجميع هنا"، بدت على وجوههم تعابير أمل حين قلت:

"إلا إذا.."

اتسعت حدقات أعينهم فرحًا، أكملت عبارتي:

"إلا إذا فُتح المصعد."

ما أن انتهيت من قولي حتى قذفت الرعب في قلوبهم.. ركبهم الهلع لإدراكهم أن الأمر جد ومهول، فشهق الملتحي، وارتعشت أطراف الملحد، ودمعت عينا الطبيبة. أكثر من تميز برباطة الجأش هو الصحافي، لم يبد أنه خائف، رغم أنه من الداخل، ربما، أكثرهم خوفًا.. ابتسامة غريبة ظهرت على شفتيه. أما الطفل فانحنى بظهره، مادًا ذراعه إلى الأسفل يتحسس فردة حذائه الرياضي اليمنى، ربما يفعل ما رأى كونان يفعله، وباشر مهاجمتي بالركل.

"لم يسقط!"

دمدم بصوت بالكاد سمعته: "لماذا لا ينجح الأمر معي؟"

لم أبد أي مقاومة إزاء ركلات الطفل، اكتفيت بإزاحته من أمامي باليد اليسرى، قابضًا باليمنى على المسدس أصوبه نحوهم. أمر حرك شفتي الصحافي يستمهلني:

"اصبر.. اصبر."

أومأ بكفيه يحثني على التحكم بأعصابي:

"لا تستعجل.. فكر في الأمر."

قلت له إن الأمر يتعلق بحياة أمي لا بحياتي، ولن أنتظر حتى ينفجر الحزام بي وبها. توسل كثيرًا، استدرك:

"من المحتمل أن يُفتح المصعد خلال الدقائق القادمة."

ضجة خلقها الطفل بفعل ركلاته المتكررة على باب المصعد، اختفت مع ارتفاع أصوات البائسين الذين راحوا بحماس يخالطه قلق، يرددون:

"نعم.. نعم" هتف الملحد:

"إنه على حق.. ولماذا لا ننتظر؟"

أضافت الطبيبة:

"نعم.. ربما يفرجها الله ويخرج الجميع من هنا أحياء."

اختتم الملتحي بنبرة رجاء:

"نعم.. ونعود إلى بيوتنا، ويكتب لك الله إحياء أربع أنفس!"

أجبروني بحجتهم هذه على التفكير والتحلي بالصبر لوقت أطول. إنهم على حق. فكرت في سرِّي، وأدركت أن عليَّ التأني لأطول وقت ممكن، إن لم يكن رأفة بهؤلاء الفزعين، فلأني أود تجنب إراقة المزيد من الدماء وإبكاء المزيد من الأسر، لكن.. ماذا لو لم يُفتح الباب ويشتغل المصعد، من منهم سيكون الأضحية؟!

الملحد

كان في غرفته يجلس وحيدًا في ساعة متأخرة من الليل، يقرأ رواية "انقطاعات الموت"، لـ"جوزيه ساراماجو"، حين سمع صوت جرس المنزل: "من قد يأتي في وقت كهذا؟" قال في نفسه وذهب، بخطى حذرة ليفتح. نظر من خلال العين السحرية للباب فلم يكن ثمة أحد، عندها توقف مترددًا أمام الباب للحظات ظنًا منه أن الطارق رحل، غير أن الجرس رن مرة أخرى، وبحركة خاطفة فتح الباب، وبالخفة نفسها هجم عليه شخصان يرتديان بدلات رمادية اللون، ونظارات سوداء، لوى أحدهما ذراعه وشدها حتى آلمته، بينما أخرج الآخر من بزته صورة لفتاة جميلة وضعها أمام عين عبدالله:

"يستحسن أن تلزم الهدوء."

نصحه الرجل بحدة:

"ولك حق توكيل محام للدفاع عنك".

قبضوا عليه، في تلك اللحظات قيدوه وزجوا به في صندوق السيارة الخلفي، وتركوه هناك وحيدًا مع حيرته، اشتعل رأسه بالتخيلات، وفكر عندئذ في كل شيء قد يرتبط بما حدث معه للتو فلم يتوصل إلى شيء. ما زال الأمر مبهمًا ولا تفسير لحدوث ما حدث، لا شيء إلى الآن سوى الغموض، اقتادوه إلى المباحث خلال ربع ساعة، لإجراء التحقيقات، عندئذ فقط عرف سبب اشتباههم به ومجيئهم في تلك الساعة للقبض عليه.. كان الأمر يتعلق بجريمة قتل.

على كرسي حديدي بأربع أرجل وجد نفسه مقيدًا، يداه مربوطتان إلى خلفه بشريط بلاستيكي مشدود بقوة، لا يستطيع حراكًا، ولو حاول لانقلب على عقبيه.

"أين أنا الآن؟"

سأل نفسه في حيرة ثم حاول أن يتنبأ:

"هل يعقل أن أكون في قبضة عناصر تنظيم القاعدة!"

هذا تفكير أرعن وسخيف جاء في غير وقته.. لا شيء يدل أو يشير ولو إشارة بسيطة على ذلك، والله وحده يعلم ما الذي جعله يفكر بهذا.

شعر أن مثانته ممتلئة، وأنه بحاجة للتبول، لكن التفكير في الذي هو فيه أنساه ذلك الشعور. كانت الغشاوة على حالها تحجب عن عينه الرؤية، والرباط يقيد حركته، لكن ما زال بوسعه سماع أصوات خافتة يتردد صداها من بعيد لم تتوقف عن الصراخ وطلب الرحمة. آثر الصمت والإصغاء إليها برهبة، وبقي كما هو في حيرته ما يزال يفكر فيما لو كان أولئك قد احتالوا عليه وخدعوه وأنهم ليسوا من المباحث كما ادعوا.

مرت نصف ساعة تقريبًا، كأنها دهر من استعادة وعيه، وهو لا يسمع سوى الصراخ، يفكر ويتخيل تلك الأرواح التي تتعذب على يد الجلادين، وفكر في أنه سيصرخ مثلهم بعد قليل عندما سمع جلبة انفتاح الباب، ثم تلاها أصوات وقع أقدام متسارعة، لم يستطع تخمين عدد الأشخاص الذين دخلوا،

لأن الأقدام سرعان ما توقفت عن الحركة، وقبل أن يبدأ التحقيق، أو ربما التعذيب، صُفق الباب وأغلق بقوة، مخلفًا صوتًا مروعًا تردد صداه بين الجدران.

"لماذا قتلتها؟"

خرج السؤال من شفتي شاب متحمس كأنه كان في اليوم الأول من عمله في مجال التحقيقات، شبه ضحكة لم يستطع عبدالله كبحها وكتمانها سخرية من السؤال. أجاب:

"لأنها لم تعد تحبني.."

سمع عبدالله عقب إجابته رجلاً غليظ الصوت يعنف الشاب الذي توجه إليه بالسؤال، قبل أن ترفع عن عينيه الغشاوة ويرى من سمع صوتهما للتو، ونور المصباح المتدلي من أعلى. سأله الرجل غليظ الصوت بعد أن توعده بالتعذيب في حالة محاولته الكذب، أسئلة عدة حول علاقته بمريم: كيف عرفها؟ أين كانت آخر مرة التقيا فيها؟ وأسئلة كثيرة كان آخرها ما إذا كان لها نشاط سياسي: "لا أظن"

"حبيبتي كانت قومية، إذا لم تخني الذاكرة - كما تفعل دائمًا- فإن آخر نقاش دار بيننا كان حول القضية الفلسطينية، حينها قالت إنه يجب علينا دعم شباب المقاومة في غزة".

"وبماذا سندعمها؟ لا سلاح لدينا".

سألتها في حين كانت على الجانب الآخر تفكر:

"بالشهداء." قالت باعتزاز.

"سندعمها بالشهداء".

شردت بتفكيري للحظات قبل أن تضيف:

"لنتفق من الآن.. كم شهيدًا سننجب؟!"

الملتحي

بدا عليه الهم وهو هناك في مكة، كان البؤس جليًا في ملامحه، حاول أبو محمد مواساته، لكن كيف لك أن تعالج شخصًا لا تعرف مما يعاني؟ سأله عما يشغل تفكيره، مرة، واثنتين، وفي الثالثة صارحه بهواجسه بعد أن ألح عليه:

"تكلم.. ربما تجد لدى العبد الفقير إلى الله ما لم تجده عند الآخرين".

استسلم له وأخبره بكل شيء. قال إنه لم يعد يحتمل أن يرى في كل شارع أبًا يمسك بيد ابنه ويأخذه للمدرسة، وأن يرى من حوله كل ذلك المُلك والثراء، وهو لا يملك الشيء الذي تشتهيه نفسه.

"استغفر الله يا شيخ. البنات فيهن الخير والبركة، أفضل من الأولاد."

ابتسم الشيخ بحزن وقال:

قد قالها الله تعالى "وليس الذكر كالأنثى."

هتف أبو محمد بفرح:

"ولم كل هذا الحزن إذًا وقد فضلها الله عن الذكر؟"

استغرب الشيخ:

"فضلها؟"

بابتسامة عريضة أكد:

نعم فضلها.. وليس الذكر كالأنثى، المفضل هنا الأنثى على الذكر.

لم يفهم ماذا يقصد أبو محمد، كان يحدق فيه باهتمام، في حين كان يشرح معنى الآية:

"إن الله في القرآن الكريم، لا يفضل الذكر على الأنثى؛ كما تقول أنت وفقهاؤنا، بل على العكس من ذلك تمامًا."

قطع حديثه واتجه إلى مكتبته يبحث عن كتاب وهو يواصل الحديث إلى الشيخ أيوب:

"التفضيل هنا للأنثى، وبما أن القرآن عربي اسمح لي يا شيخ أيوب، أن أشرح لك ما تقوله لغتنا العربية."

"من يشرح لمن؟"

سأله يلمح بشيء مهم:

"متى كان المريض يقوم بدور الطبيب؟!"

"أحيانًا".

أجاب أبو محمد:

"عندما يكون الطبيب مريضًا يحدث ذلك"!

وجد أبو محمد الكتاب الذي كان يبحث عنه، أخذه وعاد وجلس بجوار الشيخ يحثه على قراءة ما يشير إليه بسبابته:

"الله أخبرنا بأن الأنثى في العموم هي الأفضل، عندما قال سبحانه وتعالى (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) في سورة مريم، الذكر هنا هو المشبه، والأنثى هي المشبه به، و"الكاف" هي أداة التشبيه المؤكدة على المشبه به.. ومن المعلوم أن المشبه به أقوى وأعلى رتبة من المشبه وأن المشبه دون المشبه به في وجه الشبه.."

قلب صفحة أخرى كتبت فيها بعض الاستدلالات على الموضوع نفسه الذي يدور فيه النقاش. قال:

"قال الحافظ ابن حجر: حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامله، وقال ابن قيم الجوزية: إن رتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه، بينما أورد الحافظ في الفتح وأقره أن شرط التشبيه أن يكون المشبه به أقوى، وكذلك الكرماني، قال: إن شرط التشبيه أن يكون المشبه به أقوى."

هناك نوع من الحقائق لا يريد المرء معرفتها، وإن بالصدفة، كيلا يضطر لأن يكفر بها، خصوصًا إذا كان ما يشعر به من الداخل ويؤمن به يتنافى كليًا مع ما يحاول الآخرون إقناعه بأنه الحق والصواب، وإن رأيه هو مجرد وهم ليس إلا..

رغم كل تلك الأدلة التي وضعها أبو محمد أمام الشيخ أيوب، إلا أنه لا يزال حزينًا مثلما كان قبل سماعه هذه الأفكار، وربما أصبح أكثر حزنًا.

الصحافي

تم القبض على سفاح العاصمة، كما اتفقت وسائل الإعلام على تسميته، من قبل عناصر الأمن واللجان الشعبية، بعد يومين اثنين من انتشار مقطع فيديو مصور لبرنامج الكاميرا الخفية، يُظهره وهو يعترف بارتكابه عمليات قطع الرؤوس التي شهدتها العاصمة مؤخرًا. وبدأت الصحف، ونشرات الأخبار بتداول الخبر، كلٌّ بأسلوبه الخاص وحسب المعلومات التي لديه.

بالخط العريض كتبت "صحيفة الثورة" في الصفحة الأولى خبرًا بعنوان: السلطات تطمئن المواطنين، وتؤكد: لا سفاح بعد اليوم.. صحف أخرى، حزبية ومستقلة، تداولت الخبر نفسه، ولكن تحت عناوين وتفاصيل تختلف من صحيفة لأخرى، بحسب سياسة مُلاك الصحف ومموليها.

بين كل هذا الضجيج، والجوقة الإعلامية المبالغة، تابع صادق التحقيق وراء السفاح حتى بعد القبض عليه لأنه، ببساطة، لا يهتم بهوية السفاح نفسه وإنما بمعرفة الجهة التي تموله، والمستفيدة من كل اختلال أمني تشهده البلاد.

في البداية، وجد صادق صعوبة كبيرة في الاطلاع على مستجدات القضية، لأنها، كما قال أحد الضباط، متعلقة بالأمن الوطني الداخلي ولا يمكن أن

تسمح المباحث لوسائل الإعلام بأن تطلع على ملف القضية أو أن تكون على علم بالمعلومات التي سوف تجمع خلال التحقيقات، فاضطر صادق إلى أن يتواصل مع أحد الضباط المسؤولين عن القضية، وحاول أن يحصل منه على معلومات أولية، لكنه لم يسمع من الرجل سوى التوبيخ والوعيد شديد اللهجة. قال له إن تدخل الصحافيين في مثل هذه القضايا يفسد الأمور، أو يعرض حياتهم للخطر:

"لكن هذا عملي."

قال صادق ليبرر للضابط سبب حرصه والسعي وراء هذه القضية. أشار الرجل بسبابته متوعدًا:

"لا. هذا مش عملك، هذا عملنا نحن الضباط".

تراجع صادق إلى الوراء خطوة، وآلة التسجيل في يده، في حين صعد الضابط في سيارته المرسيدس.

شعر صادق بالإحباط وتساءل: أين حق المواطن في معرفة الحقيقة؟ وكالعادة لم يكن ثمة جواب مقنع.

قبل أن يرحل الرجل بسيارته اقترب من صادق بمحاذاة الرصيف، أنزل زجاج النافذة، وقال:

"إللي بتسويه أنت، اسمه فضول."

وقبل أن تنطلق السيارة أتم ناصحًا:

"والفضول قتل الغشمي[10]"

لم يبد صادق أي اهتمام لهذه الكلمات، هز رأسه بالإيجاب مجاملاً وذهب إلى ضابط آخر أخبره عن استعداده لتزويده بملف التحقيقات وكل ما يتعلق بذلك المتهم الملقب بـ "سفاح صنعاء". ولكن بشرط. سأله صادق:

"ايش هو؟! أؤمر."

أجاب الضابط باسمًا وهو يحرك سبابته مع الإبهام:

"حق ابن هادي[11]"

---

١٠ الفضول قتل الغشمي" مثل صار يقال في من ساقه الفضول إلى حتفه، ومضربه واقعة اغتيال الرئيس اليمني الأسبق أحمد الغشمي بحقيبة دبلوماسية مفخخة انفجرت به فور فتحه لها عام ١٩٧٨م، وقيل أرسلها له نظام الحكم الاشتراكي في جنوب اليمن، بالتنسيق مع المخابرات الألمانية الشرقية (الاشتراكية) إبان الحرب الباردة بين قطبي العالم ومعسكريه.

١١ حق ابن هادي، وصف دارج لكل مبلغ مال يدفع كرشوة لتسهيل معاملة غالبًا ما تكون لدى أجهزة الدولة، وهي نسبة لحاكم أو عامل لأحد حكام اليمن اتسم عهده باستفحال الأتاوات والجبايات والرشوات.

الطفل

لأنه نام في وقت مبكر، أو بسبب توقيت ساعته البيولوجية، استيقظ عيسى في الوقت الذي كان فيه العسكري يشخر بصوت مزعج.

"عمي"!

تلكأ وهو يسأله متى تحين ساعة الرحيل، جاءه الرد مثقلاً بالنعاس:

"لما يصيح الديك."

فكر في ما قاله العسكري. وطال انتظاره لسماع صياح الديك الذي يبدو أنه نائم هو الآخر، إلى أن نفد صبره، وراح للمرة الثانية يربت على ظهر العسكري النائم:

"عمي."

تأفف قبل أن يطلق عبارته:

"يا ليلة الجن!"

بلا مبالاة، همس له عيسى متسائلاً:

"متى يصبح الديك؟"

ضحكة مجلجلة صدرت من هناك، من صديق العسكري، المخزِّن بطرف الديوان، استغرب عيسى سببها، تلتها ضحكة أخرى، ولكن من العسكري نفسه، لم يكن نائمًا، بل حاول ولم يستطع. نهض العسكري مستاء ومبتسمًا في آن، دس يده تحت الوسادة وأخرج علبة الدخان واستلّ منها سيجارة، وبقداحة صديقه المخزن بطرف الديوان، أشعلها وبدأ الحديث عن أمور لا

يفقهها الطفل المسكين. شده صوت يصدر من الخارج فاتجه إلى النافذة بالقرب من الرجل الآخر، وانتصب أمامها يراقب بصمت دون أن يتعرف على مصدر الصوت. قال العسكري إنه لم يحن الوقت لطلوع الشمس بعد، أكّد: تبقت أربع ساعات، نظر إليه عيسى، لم يسبق له أن وقع في مشكلة مع الوقت قبل اليوم. سمع العسكري، من هناك، يأمره بأن يترك النظر من النافذة ويأتي إليه لينام، هز كتفيه رافضًا الأوامر، افتعل العسكري غضبًا وهو يشدد عليه:

تعال ارقد وإلا..."

ماذا بعد الـ "وإلا" هذه سوى التهديد؟ ترقب عيسى اكتمال العبارة. أردف العسكري بعد لحظة صمت:

شادعي لك صياد[١٢]"

---

١٢ صياد: اسم شخصية لامرأة اسطورية في الثقافة الشعبية المحكية تعرف في اليمن بأسماء عدة، منها "أم الصبيان" و"حيزبوت" وغير ذلك، وما يماثلها من الشخصيات الأسطورية الحيوانية مثل "طاهش "الحوبان" وغيرها.. وتوصف "صياد" بأنها شخصية "إنسجنية" تجمع بين هيئتي الإنس والجان، وأن ثدييها ينثنيان إلى ظهرها، وغير ذلك من الأوصاف المرعبة التي تدعم غاية نسجها واستحضارها شعبيًا، إما حكائيًا أو توعدًا للأطفال تحديدًا حين لا يطاوعون أهاليهم، وبخاصة في الإياب للمنازل والخلود للنوم مبكرًا، وكذا في تشبيه المرأة القبيحة طباعًا أو شكلاً، سواء بداعي الهجاء والقدح أو السخرية.

ترك عيسى النظر إلى فزاعة المزرعة المنتصبة بين أشجار القات، من خلال النافذة التفت إلى الرجل المخزن، يسأله:

"من هي صياد؟"

لا يجد منه إجابة سوى الضحك. بعد وهلة استحال الضحك ملامح تشي بالرعب، أجابه الرجل بصوت خفيض كأنه يخشى أن يسمعه أحد.. قال:

"لها وجه انسان، وأرجل حمار ."

تشكلت في مخيلته صورة مشوشة عن كائن من خلال حديث الرجل يبدو أنه مرعب..

"تطارد الأطفال اللي ما يسمعوش الكلام."

صوت ارتطام النافذة في إطارها أرعب عيسى.

من هناك، من طرف الديوان استغل العسكري صوت الارتطام المرعب، وحذر عيسى وهو يلتف تحت اللحاف مصطنعًا الخوف:

"ارقد.. ارقد بسرعة.. شكلها جاءت."

ودون أن ينظر إلى النافذة مرة أخرى، هرع إلى الفراش بجوار العسكري، واختبأ معه تحت اللحاف. ليس الأمر مرعبًا إلى هذا الحد بالنسبة له، على العكس من ذلك، فهو يرى أن رؤية كائن بهذه الصفات تثير الضحك، غير أنه رأى العسكري مرعوبًا، وهو أكبر وأقوى منه، فقلده في الفعل وارتعب

مثله، كأنه يتبع تلك القاعدة التي تقول: ما يفعله الكبار هو الصواب ويجب علينا تقليدهم في كل شيء.

في صباح اليوم التالي، وعندما وصلوا إلى منتصف الجبل توقف العسكري عن المشي، أنزل عيسى من على ظهره على مهل، وأمسك بيده وهما يقفان على منحدر يطل على الهاوية، أشار العسكري بيده إلى سلسلة جبال شاهقة. بفخر واعتزاز قائلاً لعيسى: إن الاجداد كانوا يسافرون من هذه الأماكن وينامون فيها إذا غربت الشمس وأسدل الليل ستاره قبل وصولهم، أو إذا اشتد بحميرهم التعب.

"والوحوش، ألم يكونوا يخافون منها؟"

سأله عيسى ووجهه ينضح تعجبًا بما يسمع من العسكري، ويرى من الطبيعة من حوله:

"لا، ما كانوا يخافوا".

أجاب العسكري:

"كانوا رجالاً صناديد وأقوياء."

تشكلت في مخيلة عيسى صورًا لرجال عمالقة يعتلون قمة الجبل، وعلى صدورهم دروع حديدية ضخمة.

"وأنا كذلك."

قال عيسى رافعًا رأسه، دافعًا صدره إلى الأمام يقلد وقفة الأبطال:

"سأصبح، عندما أكبر، قويًا مثلهم"،

قهقه العسكري وهو ينظر إلى ملامح القوة المفتعلة المرتسمة في وجه عيسى.

دنا منه وتمتم ساخرًا:

"أنت من عيال النيدو[١٣].. تيوس ما تناطح."

١٣عيال النيدو: كناية عن الجيل الجديد هش البنية جسمانيًا وثقافيًا؛ لاعتماده رضاعة الحليب الصناعي، وثقافة المجتمع الاستهلاكي، وافتقاد قوة ابن الريف وحميته، والتزامه قيم وأعراف المجتمع العريقة نتيجة ظروف بيئة نشأته الهشة في المدينة المتغربة عن كل ما هو أصيل ومتين.. إلخ.

الانتحاري ٥٠١

نظر سائق الباص إلى المرآة ليرى مسدسي موجهًا إليه، وضعته على رأسه، أدرك أن الأمر جد لتنفيذ الأمر إن هو تهور وحاول المقاومة. أصبعي على الزناد، يكفي بحركة واحدة مني أن يصبح المسكين في عداد الموتى. لم أتوقع منه أي فعل غير الاستسلام، لكنه كان شجاعًا لم يرضخ لأوامري. ترجل من الباص وصرخ غاضبًا:

"اقتلني، ما معي في الدنيا الا الباص أتعيَّش به أنا وجهَّالي."

وجه لي طعنة في ضميري دون أن يعرف. صرخت ووضعت فوهة المسدس في رأسه بقوة أكبر:

"قلت لك انزل."

نصحه الأعور:

"الباص يتعوض، أما حياتك فلا"،

أبى الرضوخ وأقسم بأنه لن يترك حقه ولو على قطع رأسه. استعرت غضبًا؛ باعتباره تنازلاً سافرًا عن الحياة التي من أجلها قتلت ثلاثة جنود، وامرأة، ورجلاً مصابًا، فلم أشعر بنفسي إلا وقد ضغطت على الزناد، أطلقت النار عن قرب، تفجرت جمجمة الرجل وتلطخ وجهي بدمائه التي تطايرت ملء الباص بفعل إطلاق الرصاصة من مسافة بنانة واحدة لا أكثر، دون مراعاة

لحق السائق في السماح له بعض الوقت بكتابة وصيته لأبنائه ووالديه، وكذلك لزوجته، لعله يطلب من أحد المسامحة والغفران أو أي شيء من هذا القبيل. حقه في أن يطلب مني تحقيق أمنية أخيرة قبل موته كمكرمة مني أقدمها له قبل أن أجهز عليه، لكني لم أترك له تلك الفرصة، بل هو الذي لم يترك لي فرصة إعتاقي رقبته لينجو هو، وأكسب أنا عليه أجر إحياء نفس.

لم يكن الوقت متاحًا للتفكير في مثل هذه الأمور، الوقت ضيق، أما المائة والأربعون دقيقة القادمة فهي بالكاد تكفي لإنجاز الجزء الثاني من المهمة، المتمثل في حز الرأس، مع التصوير وإرسال المقطع إلى الرجل الغريب. لكن قبل كل هذا يجب علينا نقل الجثة من مقعد السائق إلى الوراء وقيادة الباص إلى مكان غير مأهول، بعيدًا عن أعين الناس ودوريات الشرطة، بحيث يصبح إتمام المرحلة الثانية أكثر سهولة وأقل خطرًا، وخلال وقت قصير حتى تصبح المهمة كاملة ويضاف إلى رصيدي ٢٤ ساعة، وهذا ما تم، غير أن الأعور ما زال بعينه شاخصًا فوق الجثة يصفع نفسه، ويستنكر برعب شديد، وصوت يختنق:

"قتلته.. قتلته!"

جحظت عيناه وبدأ يصرخ بهيستيريا: "قتلته.. قتلته"، وهو ينقل نظراته بيني وبين الجثة، ولكن صوته كان مرتفعًا هذه المرة. وضعت يدي على فمه لأخفض الصوت:

"اششششش اسكت.. اسكت."

هدأ، ثم طلبت منه أن يساعدني في نقل الجثة إلى الخلف، ونذهب لدفنه في أي مكان بعيد.. ثمة دماء تطايرت إلى وجهينا، مسحناها قبل أن نشغل الباص ونغادر، أين سندفنه؟ ثمة نقاط أمنية منتشرة في معظم الشوارع، تعيَّن علينا أن نسلك طرقًا فرعية خشية أن نقع بين أيدي العدالة، ومن حسن حظنا وجدنا منطقة مفتوحة فيها أرضية نصفها محاط بسور كبير، لا أعمدة إنارة تكشف عما نحمله أنا والأعور، حفرنا بواسطة أسياخ حديدية لحدًا صغيرًا بالكاد يتسع للجثة، طلبت من الأعور الذهاب والمراقبة من الخارج وأنا سأقوم بدفنه.. نظرته إليَّ تشي باستغرابه، ذهب وأكملت ما نقص، وصورت، ثم دفنت الرأس أولاً ومن فوقه الجثة.

خلال طريق عودتنا لم يفه الأعور بكلمة، كان يقود على مهل وهو خائف ليس من الشرطة بل مني. لقد قتلت شخصًا أمام عينيه للتو وبدم بارد. قلت له لأكسر الصمت الكئيب:

"خسر الباص.. وخسر حياته."

قال بدون أن يلتفت:

"وحياة أولاده أيضًا."

نظرت إليه مستغربًا. أوضَحَ:

"قبل أن تقتله قال إنهم سيموتون من الجوع."

اعترضت ساخطًا:

"أنا لم أقتله."

التفت إليَّ.

أضفت: "هو قتل نفسه."

أدار رأسه يراقب الطريق:

قلت: "ثم إن أحدًا لا يموت جوعًا."

لم يعترض على قولي.

تداركت بعد صمت..

"وإن حدث، فهو يموت مرة واحدة."

تنهدت بحزن قبل أن أُكمل:

"أما أنا فأموت في اليوم ألف مرة."

لم يفهم ما كنت أعنى بقولي هذا، وربما لن يفهم.

المصعد

أخرج الملتحي فكرة دارت في رأسه طويلاً، قائلاً لهم إنه ربما عليهم التفكير في الأمر بعقلانية أكثر. هزوا رؤوسهم بإيماءة تدل على عدم فهمهم للمغزى من هذا القول، ما عدا الملحد الذي بدا وكأنه فهم دلالة هذا الاقتراح فقال:

"يقصد أن نقرر نحن من يستحق أن يعيش"!

نظر كلٌّ منهم في وجه الآخر يتفحصه كأنما يبحث فيه عن جواب شافٍ لقلق يزيد مع كل لحظة تمر.

"استنادًا على ماذا؟"! تساءلت الطبيبة..

أجابها الملتحي:

"على الأخلاق، القيم، بحسب الوظيفة، أو الأصل والنسب!"

اعترض الصحافي بحدة متعمدة:

"أين العدل في ذلك؟"

"عدل!"

قال الملحد، ثم انفجر ضاحكًا.. تغيرت ملامحه فجأة، وأضاف ساخرًا يخاطب الجميع:

"أين أجد هذا الشخص المدعو عدل، ها.. هل رآه أحد منكم؟ العدل في بلادنا يا رفيق المأزق ليس إلا شارعًا مليئًا بالقمامة، يقع فيه مبنى تلك الوزارة الملعونة، ولا يغرنك الميزان الموشوم في بوابتها".

بنفاد صبر، وشعور مفعم بالخوف، خرج الملحد بفكرة مقتبسة، كما يعتقد من قوانين الطبيعة:

"ليكن البقاء للأجدر."

صرح ناظرًا إليهم:

"بل للأصلح."

اعترض الصحافي.

"للأنفع."

اقترح الملتحي، وركبت الطبيبة موجة الاعتراض:

"ولماذا لا يكون البقاء للأجمل"؟

وبدأ كل واحد منهم يستعرض ما لديه من نفع للمجتمع، ويبرر لنفسه أحقية البقاء دون الآخرين بذكر الأمور والأشياء الإيجابية فقط من شخصيته، والجانب المشرق من حياته مصطنعًا الحياد. "أنا أرشد الناس إلى الحق، وأهديهم إلى سبل معرفة الله، أتصدق كثيرًا، وأزكي، وأساعد الفقراء والمساكين، ولا أترك يومًا دون قراءة القرآن، وذلك يساعدني في معالجة المصابين بمس شيطاني، الأمر الذي لا يفلح الطب الغربي فيه على الإطلاق."

لا شيء مما قيل أثر في البقية على ما يبدو.

"الجميع يتصدق ويزكي في هذه البلاد، ثم أن مساعدة المحتاجين أمر واجب وهين على من يتكون راتبه من ستة أصفار."

هكذا علّق الملحد.. وأضاف:

"أما أنا فلا أتصدق، لأني لا أملك شيئًا حتى أهبه للمساكين، إلا مِن شِعر يملأ القلوب حياءً.. كانت الحياة كريمة معي بالمصائب، لذا لم أتمكن من إكمال دراستي الجامعية، ومع ذلك فإن لديَّ الخطط الكثيرة لإصلاح مثالب المجتمع..

"لكنك ملحد."

قاطعه الملتحي بحدة.

"هذا صحيح." أجاب واستدرك:

"لكني لا أشكل على الناس خطرًا مثلكم أنتم أيها المتدينون، والتاريخ يشهد بذلك".

أتم وهو ينقل نظره إليهم من وجه لآخر:

"هل سمعتم من قبل أن ملحدًا قام بإعدام فقيه أو قسيس؟! لا طبعًا، لكنكم تعرفون كم ملحدًا أُعدم على أيدي هؤلاء القتلة".

تدخل الصحافي وفض الملاسنة:

"حان دوري، اتركوا لي فرصة الحديث عن نفسي. هل حديثي عن المبادئ والأخلاق والقيم سيبعدني عن خطر الموت هذا؟!"

اتجهت العيون ناظرة إليه:

"لقد خسرت كل ما أملك من وظيفة ومال في سبيل الحق والحفاظ على المبادئ، لكن.."

توقف لوهلة قبل أن يكمل:

"هل هذا يعطيني الحق في أن أكون بمنأى عن مصير الآخرين؟!"

زم الملحد شفته مستغربًا:

"ماذا تقصد؟!"

"أعني؛ مهما يكن ذلك الذي تفكرون فيه الآن، يجب أن تفهموا جيدًا أنه لا يحق لأحد، مهما تكن صفته ومهما امتلك من أخلاق، أن يقرر متى تنتهي حياة الآخرين ومتى تبدأ".

لم يرق للملتحي ما سمعه من الصحافي:

"لماذا لا تتطوع وتقدم نفسك كبش فداء إذا كنت حقًا لا تريد أن يموت أحد يا مدعي الإنسانية؟"

رد الصحافي بصوت مخنوق:

"لا أحد يريد أن يموت، لكني أيضًا لا أريد أن يموت أحد هنا بسببي، خصوصًا بهذه الطريقة. إذا كان الموت هنا أمرًا لا مفر منه فأنا أفضل الموت اليوم أو غدًا، على أن أحيا وأعيش على حساب حياة الآخرين، سأموت إنسانًا كما عشت، ومن كان حيوانًا هنا فليطبق حكم الغاب."

"يجب علينا أن نتعاون لنخرج من هنا أحياء، أو نفنى كأغبياء."

ذرفت الطبيبة دموعها بسخاء، متوسلة إياهم استثناءها من اللعبة: أرجوكم لا أريد أن أموت، حاولت بنشيجها الحاد استدرار عواطفهم والتأثير عليهم

لصالحها، وقد أوشك الخمسة في إعفائها من اللعبة، باستثناء الطفل المستعد لمشاركتهم اللعب. قطع عليهم الملتحي أفكارهم التي تولدت بدافع الرحمة. غمغم وهو يرمقها بنظرة شك:

"وجاؤوا أباهم عشاء يبكون."

صمت قليلاً، ريثما تلاقى معها بالنظرات، وأضاف:

"صدق الله العظيم".

بادلته الطبيبة نظرة الحقد لأنها فهمت ما يريد قوله، كما أن البقية فطنوا ما ألمح إليه الملتحي. لقد أراد أن يقول بملء فمه: لا تصدقوها وإن بكت، فالباكي في أحايين كثيرة يكون إما مخادعًا يسعى للنصب عليك، أو كذابًا يخفي عليك الحقيقة، ولنا في قصة النبي يوسف عبرة يا أولي الألباب.

أبديت لهم حسن نيتي في عدم رغبتي بقتل أحد بعينه، وأن ما قد أقدم على فعله هو أمر خارج عن إرادتي، ليس لشعوري بالنزق، بل سعيًا لإنقاذ حيوات أناس آخرين.

"تمامًا كما يحدث مع مصاب الغرغرينا، حين يوافق المريض على بتر عضو من جسده، من أجل إيقاف انتشار الوباء والحفاظ على سلامة أعضائه الأخرى."

الملحد

ارتدى من ملابسه ما يليق بموعد غرامي، وأصبح مستعدًا للقاء. لم يكن قد تلقى جوابًا من الفتاة بموافقتها على الخروج معه، كتب لها رسالة من هاتفه يقول: "تكات الساعة تأكل أفكاري، كلما نظرت إليها. أثناء انتظاري لكِ يزداد قلقي، وبالكاد أستطيع التحكم بمقلتي، حين أفكر في أن لقاءنا الأول قد يتأجل للحظة أو اثنتين."

انتظر حتى جاءه الرد منها بالموافقة، مذيلة رسالتها له بالقول:

"إن الأنثى عندما تحب رجلاً يتوقف عقلها عن العمل، ويشتغل القلب فقط فتعشقه بأقصى ما لديها من مشاعر، حتى إذا قال لها يومًا أنا ذاهب إلى الجحيم، تمسك يده وتسأله باكية: ألن تأخذني معك!"

كان المطر يهطل بغزارة في المساء، وقبل أن يذهب إلى موعده، ذهب عبدالله إلى أمه يسألها إذا ما أرادت منه شيئًا قبل أن يغادر:

"استمتع بوقتك، وكن بخير."

أضافت حين سمعت صوت الصواعق:

"هل أطفأت التلفزيون؟"

يعرف أمه جيدًا، تعتقد بأنه حين يهطل المطر وتبدأ السماء بالرعد والبرق يجب إطفاء أي جهاز إلكتروني لاقط للذبذبات، كي لا تجذب تردداتها الصواعق وتضرب المنزل بمن فيه، لكنه خشي أن يتأخر على الموعد فقال:

"نعم.. لا تقلقي".

ذهب عبدالله والفتاة التي يحب إلى سينما بلقيس، في التحرير؛ ليشاهدا أحد أفلام الدراما الرومانسية، وبينما كانت هي تستمتع بمشاهدة الفيلم انشغل هو بتناول "الفشار". كانت قصة الفيلم مثيرة. لكنه، فجأة، وعند منتصف الفيلم، أخذ بيدها وهم بالمغادرة. "ما الأمر؟"، سألته فلم يجبها، بقي صامتًا حتى منتصف الطريق.. أوقف السيارة في رصيف شارع جانبي، التفت إليها:

"قصص وأفلام الحب لا تنتهي إلا بمأساة."

أخذ يداعب خدها ثم أضاف:

"وأنا لا أريدك أن تفسدي كحل عينيك!"

قبّلها بحرارة على الفور فهو، كما يقول، رجل لا يفسد كحل عين أنثاه، بل يفسد أحمر شفاهها فقط. انقض عليها والتهم شفتيها بنهم حتى أرعدت السماء من فوقهما وأمطرت السحاب بغزارة، فلم يدرِ أهو احتفال السماء بهما، أم غضبها عليهما؟!

عندئذ، قرر القدر أن يظهر مفاجأة خبأها لعبدالله، الغارق هو والفتاة في بحر اللذة والهيام.. رن هاتفه، فجأة، لكن بسبب انشغاله بالفتاة لم يجب، لم يشأ الانشغال بما هو أقل أهمية عما في يديه.. رن الهاتف للمرة الثانية فأجاب وسمع خالته سلوى تخبره وهي تنشج باكية بأن صاعقة رعدية ضربت منزلهم وقضت على والديه.

نتيجة لانقطاع التيار الكهربائي في ذلك الحي، طغى الظلام على المشهد، إلا من ألسنة اللهب تتصاعد من المنزل عقب الصاعقة، ولا قدرة للأمطار الغزيرة على إطفاء نيران ما زالت تشتعل هنا وهناك.. وعبدالله، ذلك البائس يقف بضعفه وقلة حيلته تحت المطر مذعورًا، فوقه السماء تلمع بالبرق وتصرخ بالرعد، كأنما تلتقط صورًا أخيرة للبيت الذي دمرته قبل قليل.

صغار الحي، قبل الكبار، ينتشرون في المكان، كلٌّ بفانوسه ومصباحه اليدوي، يبحثون عمن يمكن إنقاذه بعيون ملؤها الذعر.

انضم عبدالله إلى ركب المسعفين ورأسه يضج بأصوات كثيرة.. زخات المطر، صافرات الإسعاف تصاحبها صافرات الإطفاء الصاخبة، وبين كل ذلك، هناك على مبعدة منه كبار عجزة، يقفون في محيط الخراب مذهولين أمام ما تراه أعينهم يولولون: "لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسبنا الله ونعم الوكيل". لا شيء هنا سوى الضجيج، وأصوات تستغيث بأفواه يخنقها ركام المنزل، وعيون تعميها عواصف من غبار. يبحث عن أبويه فلا يجد أحدًا. رعشة تجتاحه خوفًا من أن يجد والديه ميتين. لو أنه يصرخ ليكف قلب عبدالله عن الصراخ. من بين عشرات الأصوات يسمع صوتًا غير صوت سيارات الإسعاف، ليس صوت أبيه، كأنه صوت أمه. أيعجز أحد عن تمييز صوت أمه؟! يختفي الصوت ويعود تارة، يئن فتئن معه جوارح عبدالله، وتنوح تارة أخرى. برق يضيء المكان بأسره، ويكشف بضوئه عن كفٍّ لجسد مدفون تحت الركام، يصرخ أحدهم ويشير إلى موضع اليد.

عقب مواراتهم الثرى اصطف أهل وذوو المتوفييْن عند بوابة المقبرة لاستقبال تعازي من حضروا مراسم التشييع والدفن، وكان عبدالله يقف في أول الصف، مادًا يده يصافح المعزين. الحق أنه لم يشأ مصافحة أحد، لم يعد يرغب في شيء سوى الموت، أو أن يصاب بالزهايمر، لعله يتخفف من ذاكرة مثقلة بالأوزار والآثام والذنوب، ذاكرة كل ما فيها يثير الحسرة، الأسى، والندم. يا لغرابة الذاكرة، تتخلى عن اللحظات السعيدة التي بالكاد شعرنا بها، وتتمسك بالذكريات المؤلمة حتى آخر رمق. سلَّم بوجه شاحب ملؤه الصدمة على المعزين، إلا عندما صافحه الشيخ هزاع، وقال له:

"عظم الله أجركم ورحم الله موتاكم."

لم يستطع كبح ما كان يجول بداخله:

"لو كان رحمهم، كما تقول أنت، ما كان ليقتلهم بهذه الطريقة وهم المصلون، وتركني أنا المذنب".

الملتحي

اختفت مريم.. تم إبلاغ المباحث وأتوا للتحقيق في الحادثة، لكن لم يتوصلوا إلى مكانها، لذا لم تتجاسر جدة مريم، أم الشيخ أيوب، على إجراء مكالمة للشيخ في مكة وإخباره بالكارثة التي حدثت. كان يحدوها أمل في عودة مريم إلى البيت، لكن الأمر برمته انتهى عندما عرفت أم مريم ما حدث، فجعت لمصير ابنتها، وأمضت تلك الأيام تبكي ليل نهار بلا توقف، جاءت مهرولة إلى بيت طليقها تستفسر عن مكان ابنتها، وماذا حدث؟ وكيف؟ ولِمَ لمْ تملك الجدة شيئًا تقوله؟! حاولت طمأنة الأم بقولها:

"لا بد أنها في مكان ما! "

كادت تنفجر من الغيظ، كم تكره هذه العبارة، إنها تذكرها بأشياء فقدتها إلى الأبد، لأنها تقول الآن في سرها: في مكان ما.. نسيت حلمي وحفنة من الطموح، في مكان ما.. فقدت قدرتي على الضحك.. في مكان ما.. تختبئ مني دموع الفرح.. في مكان ما.. ثمة أشخاص أتمنى رؤيتهم.. في مكان ما.. أضعت قلب زوجي وها أنا ذا، في ذاك الـ "مكان ما" أفقد ابنتي. "لا بُدّ أنها في مكان ما"، عبارة تقال لنا عندما نفقد أشياء غالبًا ما نكون في حاجة ماسة إليها، ولا نجدها.

بعد رقود في المستشفى استمر لأيام استعادت أم مريم وعيها، وبعضًا من عافيتها، وقامت فورًا بمهاتفة الشيخ، تخبره باكية بمصير ابنتها البكر، وتلقي

اللوم عليه والوعيد، لم يفهم الشيخ ما الأمر! كان نحيبها وبكاؤها يشوشان على حديثها، لكن الشيخ بعد تلك المكالمة لم يمكث يومًا آخر في مكة. سأله أبو محمد عن سبب رحيله المفاجئ فلم يجب، واكتفى بالقول إنه سيخبره في وقت لاحق. حجز على أول رحلة إلى صنعاء، وعاد مثقلا بالحسرة والحزن، لا على مريم، فهو لم يستوضح الأمر بعد، بل لأنه لم يكمل العمرة التي غادر بلاده من أجلها.

كان الجميع بانتظاره في البيت، ليسوا تواقين لرؤيته بقدر ما هم مرعوبون منه، إلا توفيق فقد كانت مشاعره حينها مليئة بالحقد، وما جاء ذلك اليوم إلا للتشفي.

"أوليس زواج القاصرات أفضل من ضياعهن!"

قال لزوجة عمه السابقة، أم مريم، قبيل وصول الشيخ بدقائق.. أجابت من دون أن تلتفت:

"كل الطرق، في هذا البيت تؤدي إلى الضياع."

تمتمت بهذه الكلمات وهي تنظر إلى صورة الشيخ المعلقة على الحائط. لم تمر سوى دقيقة حتى دق جرس المنزل.. وقف الجميع والتوتر يغتال ابتسامات مفتعلة صبغت وجوههم، فتح توفيق الباب مرحبًا بعودة عمه:

"حيا البيت وأهله.. الحمد لله على سلامتكم يا عم".

ردد كل من في الصالة العبارة نفسها، مهنئين له ولأنفسهم عودته سالمًا، تدافعت الصغيرات بفرح إليه، بينما كانت الكبيرات ينتظرن مواجهة وشيكة

لا مفر منها في اللحظة التي سيقول لهم فيها: "أين مريم؟" ينتهي عناقه مع بناته الصغيرات، يقترب من والدته يقبل رأسها، ينظر إلى هناك حيث تقف طليقته كاشفة عن وجهها، بغضب يحثها على أن تستر نفسها:

"ما يجوز لش من الله."

تذكر أن أمرًا حدث لـ مريم، لا يعرف ما هو.

"أين مريم؟"

أمسكت الحنجاء بذراع الشيخ، تشده نحو الأريكة:

"اجلس بالأول ارتاح.. وبعدين نتحاكى."

ازداد قلق الشيخ وحيرته:

"ما حصل لمريم؟!"

لم يفه أحد بكلمة، عجزوا عن النطق، صاح: "مالها.. تحاكوا.. تكلموا .. ما!"

انفجرت أم مريم باكية، وضعت يديها على فمها تحاول كبح ذلك بلا جدوى، تحاول الجدة التخفيف من حدة الموقف، تشرح فتخونها الكلمات، تتلعثم.. تبكي التوأمان، والشيخ في حيرته لا يزال ينظر إلى توفيق ينتظر منه جوابًا، يستجمع توفيق قواه، وبملامح جامدة يبوح بالنبأ:

"خرجت قبل أسبوعين من البيت، و.. لم تعد."

"ولماذا خرجت؟!"

لم يكن يسمح لها بالخروج من البيت إلا نادرًا، ويكون ذلك بعد إذنه، وهذا مع استثناء خروجها في الصباح للذهاب إلى المدرسة، بيد أن اختفاءها كان بعد عودتها من المدرسة.

نظر ناحية زوجته السابقة يستعد لتعنيفها كما اعتاد أن يفعل كلما حدثت مشكلة، تذكر حينئذ أنه طلقها، ولم تكن في البيت ساعة الحادثة.. مال نحو أمه بغضب:

"ليش سمحتوا لها تخرج؟ ليش.. ليش؟!"

كان غاضبًا، ومن حركات جسمه بدا كأنه يتشنج.

"محد سمح لها."

قالت الحنجاء، واستدركت قائلة إنها خرجت من البيت عندما كانت مريم موجودة فيه.

"رجعت وما لقيتها."

لم يحتمل الوقوف على قدميه، جلس على الأريكة غير مصدق ما حدث:

تدخلت طليقته بغضب:

"أنت السبب."

دعمت الحنجاء رأيها، أوضحت أنها كانت مستعجلة للذهاب إلى أم إبراهيم لتشتري وصفة علاج قرآنية".

"قرآنية!" قال باستياء.

"أيوة، تخلي خلفتك عيال بإذن الله".

بعد أن بحث الشيخ أيوب عن ابنته في كل مكان يخطر على البال أن يجدها فيه، طوال هذه الفترة، دون أن يجد لها أثرًا، أصيب باليأس، مثل أهل بيته البنات والأمهات، وتمكن منه الإحباط حتى استسلم أخيرًا، وأيقن أنه فقد ابنته إلى الأبد.

هل ماتت؟ هل ضاعت؟ هل تم اختطافها، أم أنها رمت نفسها في وادٍ ما وانتحرت؟ لا أحد يعرف، وربما كل ذلك لم يعد ذا أهمية لديه. لقد كانت مريم حملاً ثقيلاً على قلبه لأنها بنت، والآن ارتاح من ذلك الحمل.. اختفت الفتاة بطريقة ما وانتهى الأمر.

الصحافي

وافق صادق على شرط الضابط المرتشي، ودفع له "حق ابن هادي" في الصباح. وفي الليل، قبل أن يتمكن النوم من صادق، نبهه رنين هاتفه المحمول برسالة من رقم الضابط. قال له فيها: "الوداعة تحت الباب، اخرج الآن وشلَّها.." فعل ذلك فورًا. أخذ الملف متشوقًا لقراءة ومعرفة ما تحوي طياته، كان يأمل أن يجد فيه مادة صحفية دسمة تشغل الرأي العام، وهذا بطبيعة الحال ما يريده أي صحافي مبتدئ كي يعبّد طريق نجاحه في مجال الصحافة. وقد وجد صادق في الملف ما أراد. ولكن.. ما هذا؟ إنه.. هل يعقل؟

بحسب المعلومات الأولية المذكورة في ملف التحقيقات الذي سربه الضابط المرتشي لصادق، فإن الإرهابي الذي تم القبض عليه، قبل يومين، على أنه سفاح صنعاء، ذابح الجنود، وقاطع رؤوس الأبرياء، اعترف خلال التحقيقات أنه منتسب قديم في تنظيم القاعدة، لكنه اعترض على التهمة الموجهة له وأنكرها بقوة، وأكد أن من يبحثون عنه شخص آخر يشبهه!

هددوه كي يعترف، وقبل أن يبدأوا بتعذيبه في زنازين المفسدين في الأرض، طلب منهم الاستماع إلى القصة بكاملها، ومن ثم إن أرادوا، فليقتلوه.

تحدث إليهم "مصعب"، وهذا هو اسمه الحركي، عن استقطاب التنظيم له عندما كان في محافظة حضرموت. كان يجلس في حلقة علم واحدة مع الطلبة

في مسجد قرطبة. رافقهم خارج المسجد، حتى صار مع الأيام واحدًا منهم.. من أولئك الأشخاص شخص يدعى الزبير، جمعته به صداقة قوية حتى أصبح أقرب الناس إليه، إبان توغل التنظيم في العاصمة صنعاء. تم تنصيب هذا الزبير أميرًا لإمارة صنعاء، لكنه في منصبه هذا لا يملك صلاحية اختيار منفذي العمليات الانتحارية، هو فقط يدير العمليات ويخطط لها، وهذا ما وضع مصعب في مأزق كبير، حتى أتى الدور، بأمر من القيادة، عليه لتنفيذ العملية الاستشهادية القادمة.. يقول:

"صعقت لهذا النبأ، لم أكن بتلك الدرجة من الإيمان التي تجعلني أقدم على الانتحار تحت أي مبرر كان، لم أبح بخوفي للزبير، عرف هو ما بي بمجرد أن نظر إلى عينيَّ، كنت أفكر حينها في حلّ، وأتذكر قانون التنظيم في أن القيادة لا تتراجع عن قراراتها، وتصر على تنفيذ القرارات الصادرة إصرارًا دونه الموت، رغم هذا كله وعدني الزبير أن ينقذني من الموت لأنه لا يريدني أن أموت فيحزن، أم أن هناك مبررًا آخر! في الحقيقة لا أعلم، ولم أكن أعلم أيضًا كيف فعل ذلك، كيف هرَّبني من قبضة التنظيم، إلا حين طلب مني صورة واضحة لي.

"ما الفائدة منها؟"

سألته وأنا أفتش خزانتي، وأسمعه يطلب مني أن أتظاهر باستعدادي التام لتنفيذ العملية والتمثيل بالثقة والسعادة أمام المجاهدين، كوني سأقضي شهيدًا في سبيل الله. وجدت إحدى الصور وناولته، أجاب:

"سنخدع القيادة.. ستختفي من هنا، وتُلبس الحزام شخصًا آخر".

ما أعرفه أن القيادة تحمل معلومات كل واحد منا بالوثائق والصور، لذلك سألته:

"كيف سيحدث هذا؟!"

نقل نظراته بين وجهي والصورة في يده قال:

"يخلق من الشبه أربعين."

أغلق صادق الملف.. هل يعقل؟

أخذ الصورة التي تم إرفاقها في المظروف. وفي صباح اليوم التالي اتجه إلى سجل الأحوال المدنية، أراد أن يختبر حدسه وصحة ما قاله الإرهابي خلال التحقيقات، أراد مطابقة الصورة والبحث في سيرفرات المعلومات الخاصة بالسجل المدني، لا أحد يسمح لك بالتلاعب بالقوانين إلا بعد أن تدفع حق ابن هادي، دفعها صادق وكان له ما طلب.. تم نسخ نسخة إلكترونية للصورة التي في يده وإدخالها في حاسوب النظام للبحث عن الشخص الذي يحمل الملامح نفسها: اسمه.. أين يسكن.. حالته الاجتماعية.. والجهة التي يعمل لديها، لم يستغرق البحث أكثر من خمس دقائق حتى ظهرت النتيجة.. ثمة شخصان اثنان، يا الله.. إنهما متشابهان لدرجة لا تصدَّق، كأن أحدهما مرآة الآخر.. الأول اسمه مصعب، وهذا تم القبض عليه، أما الآخر لولا أن اسمه مغاير لأقسم صادق أن الصورة لمصعب نفسه. أخرج الموظف المرتشي

لصادق نسخة لبيانات شبيه مصعب، وكان أول شيء يقوم به هو الذهاب إلى عنوان منزل الشبيه.. أحد سكان الحي قال له حين سألته إنه اختفى مدة تزيد على أسبوعين، وإلى اليوم لم يجد له أهله أي أثر.

الطفل

همس عيسى:

"خبئهن جيدًا!"

ضحك العسكري وقال:

"ولم القلق؟"

وضع الحذاءين في صندوق الأحذية. وأضاف:

"نحن في بيت الله."

اختلاف طرق المصلين في الصلاة أغرقت عيسى في الحيرة. لم يدرِ أيسربل يديه إلى الأسفل، كما يفعل الإمام، أم يضم يديه على بعضهما فوق بطنه كما يفعل العسكري. قرر بعد تفكير أن يقلد صاحبه العسكري. "لماذا يتكلم الإمام ويصمت الذين في الخلف"؟ تساءل، أيضًا، لماذا يقلدونه في بعض ما يقول، وكل ما يفعل؟ البعض يكرر: آمين.. والبعض الآخر يبقى صامتًا. فعل مثلهم: ركع معهم وسجد، بلا دراية بما يتمتمون به مع أنفسهم طوال الأربع الركعات، في السجدة الأخيرة كان قد سجد، ولكن بطريقته، بحيث يستطيع رؤية المصلين خلفه، ومن أتوا متأخرين إلى الصفوف المتأخرة في السجدة الثانية، كرر الفعل ذاته وسجد.. فكر في سره: أمي وهؤلاء يفعلون الشيء نفسه، أتراها لعبة للكبار فقط؟ سأل نفسه: "لماذا أشاركهم إذن؟"،

رأى هناك، من خلف الساجدين، شخصًا واقفًا على قدميه بجانب الصندوق الذي وضعوا فيه أحذيتهم، لم ينضم للصلاة، أخذ شيئًا من الصندوق وهرب.. "لماذا يهرب؟!" سأل عيسى العسكري فلم يجب لاستغراقه في الصلاة. الأمور تحدث بغرابة هنا في هذا العالم، ولا يملك المتأملون لها تفسيرات. تذكر حذاءه. ببراءة نهض من سجوده فورًا، ناظرًا إلى صناديق الأحذية الموضوعة في مدخل المسجد. رأى الصندوق مفتوحًا، فانطلق يقفز على ظهور المستغرقين في السجود بخفة ومهارة، كما يفعل بطله المفضل "الرجل العنكبوت".

فتش في الصندوق فوجده فارغًا، سلم المصلون يمنة ويسرة، عقب انتهاء الصلاة عاد عيسى إلى الصف الأمامي، حيث كان العسكري يبحث عنه. أخبره بالسرقة التي حدثت، فذهب الأخير للتأكد مما يقوله الطفل.

على مبعدة منهما بأمتار كان الإمام واقفًا والمسبحة في يده، يجيب عن أسئلة الحيارى من المسلمين.. كان عيسى يراقبه بصمت حتى انفض الجمع من حوله، وأصبح منفردًا:

"سيدي .. أنت.. أيها القوي."

ببراءة الطفل، وحيرة السائل كان يهزه من بردته: "أليس هذا بيت الله؟!"

لم يسبق له أن تحدث مع طفل عن الله..

"نعم."

أجابه مبتسمًا، وأضاف شغوفًا لسماع الطفل:

"ماذا تريد؟"

قال عيسى، بغضب، ممزوج مع حزن:

"أريد أن أتحدث معه."

فوجئ الشيخ بالطلب:

"مع من؟!"

سأله مندهشًا:

"مع الله."

أجاب عيسى.. تلعثم الشيخ، ولم يعرف كيف ينبغي أن يجيب الطفل، لكن العسكري أنقذه، عندئذ، بعد أن تأكد من اختفاء الأحذية. أمسك بيدي عيسى يهم بالرحيل:

"لقد تأخرنا."

قال لعيسى وشده من يده، وهو يعتذر للشيخ.

صرخ عيسى باستياء:

"لقد سرقوا حذائي الجديد، وكان الله يراهم."

شرع في البكاء واختتم:

"لماذا يسمح للصوص بالدخول إلى بيته!"

رحل عيسى والحزن يعتصر قلبه لفقدانه أول حذاء يحصل عليه. لم يحصل على إجابة تشفي فضوله وشغفه بالمعرفة. غادر قبل أن يجيبه الشيخ قائلاً: الله أعلم!

الانتحاري ٥٠١

لستُ إلهًا مطلق الرحمة لأسامحك على كل ما فعلته بي، وما فكرت أن تفعله ولم تستطع، ولا طفلاً تحطم ألعابه ثم تفوز بغفرانه مقابل قطعة حلوى. لطالما سمعت والدتي تردد مقولة "المسامح كريم." تحثني على مسامحة المخطئين في حقي، لكن من قال إني كريم! من كان كريمًا معي في ارتكاب الأخطاء بادلته الكرم ضعفين، ولكن في العقاب لا في شيء آخر.

لم أجد مبررًا مقنعًا لما أود القيام به سوى الانتقام، فبدلاً من أن أقتل الأبرياء بلا مبرر، سأفعلها وأقتل؛ ولكن بذريعة الثأر. الانتقام ممن تسببوا في جلب العذابات والمصائب لي ولأهلي ولكل من أحب. سأقتص للحزانى والمظلومين، كل غليل بعد القصاص سيُشفى، وإن بطريقة غير قانونية. عن أي قانون أتحدث؟ هذه فرصتي لتحقيق العدالة في الأرض، ولست غبيًا لأضيعها، عليَّ محاسبة من أخطأوا في حقي ذات يوم ومعاقبتهم هنا في الدنيا، كيما يكفوا عن ارتكاب الحماقات والجرائم بحق الآخرين، أما في الآخرة فليفعل الله بهم ما يشاء.

"لننطلق."

أقلع المحرك. أخبرته بعنوان الهدف القادم الذي سنذهب إليه. قلت له محذرًا:

"يجب عليك أن تكون يقظًا هذه المرة. ما حدث يوم أمس لا أريده أن يحدث اليوم. هل فهمت؟"

"لا عليك.. لن أكرر الخطأ".

"يستحسن ألا يتكرر، لأن الخطأ، هذه المرة، قد يكلفك حياتك."

لم أتوقف عن الكلام. طوال عشرين دقيقة، وهي المدة التي استغرقناها حتى وصلنا إلى العنوان المطلوب، وأنا ألقي عليه التعليمات والأوامر والتحذيرات بطريقة أزعجته وزادت من قلقه. وصلنا إلى المكان المراد. ترجلت من الباص، وطلبت من الأعور أن يبقى للمراقبة. كان الوقت عصرًا. ألقيت نظرة خاطفة على ساعتي، إنها الرابعة. أرسلت نظراتي في أرجاء الشارع إلى موقف السيارات الخاص بعمارة الصنعاني، حيث يسكن الهدف. بحثت عن سيارتها، لكن لم أجد لها أثرًا. التفتُّ بنظري إلى الرصيف المقابل للعمارة، توجد بعض السيارات متوقفة هناك، لكن بلا جدوى، النتيجة نفسها، لا وجود للسيارة.. ماذا أفعل الآن؟! غمغمت: إما أنها ليست موجودة في الشقة، أو.. ربما باعت سيارتها واستبدلتها بأخرى، لا لا أظن! عدت إلى الأعور الذي كان في الباص منهمكًا بالتدخين. أخبرته ألا وجود لسيارة الهدف، ربما لأنها غير موجودة في شقتها الآن.

قلت له: "سننتظر إلى أن تأتي."

"وإن لم تأتِ؟!" سألني واستدرك:

"ماذا سنفعل؟"

ابتسمت له بخبث.. قلت: "يجب أن تأتي.. وإلا."

تناولت السيجارة منه، أخذت نفسًا عميقًا ثم أطفأتها في يده:

"سأكون مضطرًا لقتلك".

قلتها بجدية واضحة، ثم قهقهت ضاحكًا لأبدي له وكأن الأمر قيل من باب الدعابة ليس إلا. بدا أن الأعور حار في كلماتي بعد أن بادلني ضحكات يغلفها القلق. لا بأس إن قلق فهي حياته.. لقد أسقط في يده أن هذا الكلام فاجأه باعتباره تهديدًا، وربما تمنى لو أنه لم ينبس ببنت شفة لأنه يشعر الآن بالخطر فعلاً، والخوف من أن أقدم في أية لحظة على قتله بفعل الخوف من الموت، كما حدث أمامه قبل أيام، وبالذريعة ذاتها، تخليص الناس من شرورهم وإرسالهم إلى السماء لتلقي الجزاء العادل.

بقينا صامتين، أنا مع هاتفي وهو مع سيجارته، إلى أن خطرت في رأسي فكرة أن أتصل إلى هاتف الفريسة.. لا، إلى الهاتف الثابت لشقتها. بنبرة سلطوية طلبت من الأعور هاتفه المحمول. نظر إلى هاتفي في يدي كأنه يقول: وهاتفك ما عمله؟ لو سأل كنت سأجيب: يقوم بتوثيق جرائمي. أعطاني هاتفه دون أن يسأل خشية أن يسمع ما يقلق باله كما جرى قبيل قليل. أدخلت الرقم وضغطت على اتصال، لا شيء سوى الرنين، أكرر الاتصال مرة واثنتين ولا مجيب، في المرة الثالثة قلت: إن رَفَعت السماعة ستموت، إن لم ترفعها ستعيش يومًا آخر، ويموت الأعور اليوم. أطال الله في عمر الأعور، وعجل بأجلِ مَن أتيت لأجلها:

"ألو."

جاءني صوتها من الجانب الآخر على الخط، لم أجب.. ما معنى ألو! لا أحد يدري.. كررت الكلمة:

ألوو."

ولم تسمع سوى صوت المجيب الآلي يقول لها: لقد انتهت المكالمة. ليست المكالمة وحسب أيها المجيب، بل وحياتها أيضًا انتهت.

ثمة كهل يقف عند مدخل العمارة، سبق أن شاهدني مع أبي، لا أريد أن يكشف للشرطة أنني الفاعل، نسقت مع الأعور خطة للدخول دون أن يتعرف عليَّ الحارس أو يعرف حتى أن شخصًا غريبًا دخل العمارة. دقائق مرت، ومن هناك، على مبعدة من العمارة بقليل، كان الأعور يفتعل ألمًا وينادي طالبًا المساعدة، وكانت خدعة جيدة لفقتها ليترك الحارس مكانه ويذهب لمساعدة الرجل، وأتمكن الآن من دخول العمارة بلا مصافحة ولا سؤال من الحارس الذي سيكون بعد ساعات بين يدي الشرطة يدلي بإفادته أثناء التحقيقات. كان من السهل عليَّ استخدام المصعد تجنبًا لمشقة الصعود عبر السلالم، غير أن فيه كاميرا مراقبة، وهذا ما أهرب منه كي لا تتم مشاهدتي قبل الحادثة. مجبرًا كنت أصعد السلالم، وصلت أخيرًا إلى الطابق الخامس.. أمام الشقة أقف وقد أهلكني الصعود، أسندت نفسي على الدرابزين، استعدت أنفاسي شهيقًا وزفيرًا، أخرجت منديلاً من جيبي وضغطت على الجرس. لم أعد أعرف ما هو الخوف، ها أنا ذا على بعد دقائق من القتل ولم يرف لي طرف، فلا يداي ترتجفان ولا دقات قلبي تتسارع ولم

تتقلص معدتي، قدماي ثابتتان، وملامح وجهي، كما أراها في العاكس الذي يغطي نوافذ الباص، عادية جدًا أو ربما غريبة لدرجة أن أحدًا لا يستطيع توصيف مزاجي الآن: لا سعيد ولا حزين، لا أنا شجاع ولا خائف، ووجهي لا بشوش، لا باسم ولا عابس. عندما فتحت الباب كان تغطي نصف شعرها، استقبلتني بحفاوة على غير عادتها، لم يسبق أن زُرتها إلا مرتين فقط مع أبي، وهذه المرة الثالثة، ولكن لا يوجد في الشقة شخص ثالث. مع كأس العصير الذي قدمته لي وضعتني أمام جيش من الأسئلة: أين كنت؟ ومع من؟ ولماذا اختفيت؟ ولماذا فعلت؟ وكان ينبغي عليك أن تفعل و.. و. و.. هي تعرف كم نكرهها، أمي وأنا. فلماذا تبدو وكأنها كانت قلقة عليَّ؟ دخلت إلى غرفة نومها، عندما كنت أفكر في اللحظة المناسبة التي أجهز فيها على خالتي، زوجة أبي، طبينة أمي[١٤]. سمعتها ترفع سماعة هاتف، اقتربت من الغرفة أسترق النظر وإذا بها تضع السماعة على أذنها لتجري اتصالاً، لمن؟ أبي..؟ أخرجت المسدس في اللحظة نفسها التي نطقت فيها باسم أبي، أطلقت النار على رأسها فورًا، سقطت أرضًا، وتركت صوت أبي في السماعة الملقاة بجوارها يردد مع الوو.. اسمها.. اسم القتيلة!

المعذرة يا والدي غير العزيز، الشخص الذي تتصل به مقتول حاليًا، أو قد يكون خارج نطاق هذه الحياة.

---

١٤ طبينة، لقب تطلقه الزوجة على زوجة زوجها. ويقال في اللهجة العامية فلان مطابن، أي على ذمته أكثر من زوجة.

المصعد

لا أعلم حقًا ما الذي وسوس للملحد ودفعه لمهاجمتي، أو إن لم أكن مخطئًا، محاولة أخذ المسدس من يدي. سمعت تحركًا مريبًا ورأيته ينبري نحوي فأطلقت النار عليه بلا قصد، ولأنني شعرت بالخوف من أن يحاول لمس الحزام في تلك اللحظات.. لم يسقط أحد، كل واحد منهم تجمد من الخوف في مكانه كما فعلت أنا، وكلٌّ منهم تشتت بأفكاره إلى احتمالية دخول الرصاصة فيه، فراحوا يتحسسون أجسادهم بعد سماعهم صوت ارتطام العيار الناري بجدران المصعد.

"كما أخبرتكم."

هتف الملحد منتصرًا لرأيه السابق:

"لا يوجد أية رصاصة."

انتظر أن يسمع منهم شيئًا وهو ينتقل بنظره من وجه إلى آخر:

واصل:

"إنه ذلك البرنامج القذر فحسب".

لم يدعم رأيه أحد، كما أن أحدًا لم يعترض أو ينبس ببنت شفة، فالرهبة لم تغادر أعينهم، وما زالت أبدانهم ترتعش. تبولت الطبيبة على نفسها، لم تستطع منع ذلك. سال البول من تحت سرواها ليشكل بقعة مياه على أرضية المصعد. بدا

من ملامح الملتحي أنه تقزز من المنظر. رمقها الملحد بنظرة شفقة. تظاهر الصحفي بانشغاله بتقليب الورق بين يديه كأنه لم ير شيئًا، ضحك الطفل، وبسبابته أشار إليها ساخرًا:

"لقد تبولت على نفسك."

كرر وهو يقهقه ضاحكًا:

"تبولت على نفسها."

خيّم الصمت على الجميع، ولم يعد يُسمع شيء سوى صوت أنفاسهم اللاهثة. بعد برهة من التوتر رأيت الملحد يتحسس أسفل ظهره. أعاد يده أمامه ورأى الدماء بين أصابعه.

"دم!"

غمغم بصوت متعب، عادت الأصوات الخائفة مجددًا:

جثا الملحد على ركبتيه وهو يحس بالخدر يسري في جسده، أرادت الطبيبة أن تدنو منه وتتفحص الجرح، لكن ما سال منها قبل قليل أحرجها، وحال دون اقترابها منه. ولأن ما حدث كان أمام الآخرين فقد تسمرت في مكانها، عيناها تنظران في الفراغ، بدا أن حركتها قد شُلت، ولو أن أحدًا رآها من مسافة خمسين مترًا أو أكثر لظن أنها تمثال.

"ماذا الآن؟!" سألتهم بنفاد صبر:

"هل ستقفون هكذا مكتوفي الأيدي؟!"

انتظرت منهم ردًا لم يأتِ.

"افعلوا شيئًا، الرجل يموت."

"وما عسانا أن نفعل؟" قال الصحافي.

"لا شيء."

أضافت الطبيبة ناظرة إلى الملحد الذي راح يئن ويغمغم وهو يتحسس جرحه وقد غرق قميصه بالدماء. استدركت:

"الجرح بحاجة إلى غسيل وتعقيم وتضميد، وكما ترى ليس لدينا هنا ماء ولا يود، ولا حتى ضماد".

"هل ستتركونه يموت؟!"

الملحد

كانت الشمس تسقط على وجهه بقسوة، وهو يستلقي في الساحل الذهبي، وقد بدا أن هذه الرحلة ستكون الأجمل، لأنها المرة الأولى التي يكون فيها عبدالله في شواطئ عدن مع الفتاة التي أحب، لكن سرعان ما تلاشى ذلك التفكير، عندما سمع أحدهم يصرخ:

"إنها تغرق."

التفت فلم يرها بجواره. تذكر إنه قال لها:

"اذهبي وسألحق بعدك."

هرع إلى الماء فورًا، رغم أنه مثلها لا يجيد السباحة، لم يستطع منع نفسه من الغوص في وسط البحر والإسراع لإنقاذها من الموت.. كانت تحرك يديها إلى فوق بحركة عشوائية طالبة النجدة. سمع عبدالله صوتها كأنها تهتف باسمه، وبصعوبة خيالية تمكن من الوصول إليها وإخراجها إلى البر.

"يااااااااااارب."

قال قبل أن يقبلها بطريقة التنفس الصناعي، وقام بتهريب بعض من الهواء من رئته إليها عبر قُبلة من شفتيه.. كيف استنجد بالربّ وهو ملحد! مرت بضع ثوان واستعادت وعيها بعد أن كان عبدالله قد فقد الأمل في نجاتها.. همس في أذنها:

"كذبت عليك، أنا لا أجيد السباحة."

أخذت بعض الوقت حتى أصبحت قادرة على الكلام، كانت كالملاك، وهي تحدثه مبتسمة:

"أعرف ذلك."

صمت مستغربًا وأضافت هي:

"أردت أن أختبر محبتك لي، إن كنت ستجازف من أجلي أم لا، وقد نجحت في الاختبار."

عانقته بقوة، شعر بأنفاسها تلفح ذقنه، ولا يدري ما بها، ثم سمعها تهمس له:

"أحبك."

ذلك اليوم، كتب عبدالله في صفحته على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك منشورًا قال فيه:

"أوشكت أن أكون ملحدًا لا يعترف بوجود إله، ولأسباب نفسية محضة، لكن عينيها اللتين تلمعان بذلك السحر، لم ترسم إلا بيد خالق مبدع.. هكذا تأكدت عند رؤيتي لهما."

في الليلة نفسها، قبل أن يخلد للنوم، وصلت إلى هاتفه رسالة من رقم مجهول، قيل له فيها إنها من مريم تطلب منه المجيء إلى صنعاء، وبالتحديد إلى المستشفى اليمني النمساوي، الأمر طارئ.. اختتمت:

"حياتي مرهونة بمجيئك."

الملتحي

شعر الشيخ أيوب بخيبة أمل كبيرة لأن الزواج الذي كان سببًا في سلسلة مصائب لا آخر لها لم يثمر بالصبي الذي يتمناه. أدرك حينها أنه ظلم زوجته السابقة أم مريم وأخطأ في حقها، شغفت قلبه شوقا لها. لا ندرك قيمة الأشخاص ومدى حاجتنا لهم إلا بعد ابتعادهم عنا.. لكن الندم الآن لن يغير في الأمور شيئًا، فقد طلقها ثلاثًا.

"انتهى الأمر."

قال للحنجاء وهي تضم على يديه بكفيها.

"لا.. لم ينته بعد".

ابتسم لها بحزن ظنًا منه أنها تحاول مواساته فقط، غير أنها أخبرته بأن يسارع بإرجاع أم مريم.

انفلتت منه ضحكة قصيرة لما سمعته أذناه للتو، وسؤال من ثلاثة أحرف:

"كيف؟"

نظرت الحنجاء إليه تترقب ردة فعله حين قالت:

"محلل."

أضافت متحمسة:

"تتزوج واحد تختاره أنت، بقصد أن يطلقها في اليوم التالي. ثم تتزوجها."

اعترض على الفكرة قائلاً:

"وكيف أقبل أن أتزوجها وقد لمسها أحد غيري؟"

انتصبت الحنجاء أمامه غاضبة:

"نسيت أنها قبلت بك وقد لمست غيرها؟!"

الطفل

أدهشه ما رآه في هذا العالم، كم هو كبير ومدهش. السماء الزرقاء المزينة بالغمام المطرزة بالطيور، ولاحظ أثناء الطريق مخلوقات ومشاهد مختلفة في تفاصيل، ومتشابهة في تفاصيل أخرى. امرأة ملثمة تتوشح قطعة قماش أحمر تغطي ظهرها بالكامل.. أشار إليها وقال للعسكري: "تشبه الرجل الخارق سوبر مان." صمت للحظات وسمع صوتًا يترنم. تلفت حوله يبحث عن مصدر الصوت، و"تلك." بتر جملته وأشار إلى فتاة شابة ملثمة تسوق بعصاها عشرات الخراف، ولا تدري أنها تجبر السامع على التوقف للتلذذ بمغناها. "صوتها جميل" قال للعسكري. أوضح الأخير "إنها تغرد". لفت انتباهه أن العسكري كلما مر بجوار شخص أو من أمام مجموعة من الناس يرفع يده إلى رأسه ويقول: "السلام عليكم"، فيجيب الآخرون عليه بعبارة مشابهة: وعليكم السلام.. سأله بعدما تكرر هذا المشهد غير مرة:

"من هؤلاء؟"

هزه من ثوبه وأضاف:

"هل تعرفهم؟"

رد العسكري باسمًا:

"لا.. لا أعرفهم."

تساءل عيسى عن سبب الابتسامات المتبادلة بين العسكري وأولئك في نفسه، دون أن يتفوه بكلمة أخرى. قرر بعدئذ تقليد العسكري بإلقاء التحية على فتيات في عمره مررن بجواره، رفع يده كما رأى العسكري يفعل، وصاح:

"السلام عليكم."

نظرن إليه وانفجرن ضاحكات، وانفجر غاضبًا:

"عمي! لماذا لم يقلن لي: وعليكم السلام!"

غمغم العسكري بصوت حزين:

"لأنك ابن حرام."

عيسى لا يعلم ما معنى هذه الكلمة، سأله عن المعنى، أجاب:

"سوف تكبر وتعرف كل شيء."

واصل المسير وهو يهذي بالقول:

"ستتمنى لو أنك بقيت مع أمك في الغرفة."

هناك، في الريف خلف الجبل، قطف عيسى الفراولة، أكل التوت، شرب اللبن، وصعد فوق السيارة مع العسكري دون أن يطلب أحد منهما المال. كل شيء بالمجان، بعكس المدينة لا تحصل على شيء إلا مقابل المال، الفواكه المشروبات، الطعام، الألعاب، حتى ركوب الحافلات إن كنت واقفًا تدفع

المال كبقية الجالسين في المقاعد. كانا فوق الحافلة في طريقهما إلى المستشفى، وعيسى فاغر فاه ينظر إلى كمية البشر الموجودين في العالم هذا، والضجيج الذي تخلفه أصوات السيارات المزدحمة في الطرق، الشوارع المليئة بالبشر كبارًا وصغارًا، كلٌ له لباس خاص، ذاك يغطي صدره بقميص، وقطعة قماش تغطي الركبة وما فوقها. تلك تشبه الرجل الوطواط بردائها الأسود، ولا يظهر من خلفه سوى عينيها الواسعتين.. ذاك أيضًا بثوب أبيض مع كوت وقطعة قماش ملفوفة على رأسه.. وهذا بسروال ضيق على جسمه وشعره كالأناناس. وفي الحافلة شاب بملابس غير مرتبة يبيع الصحف.. عجوز تمد يدها طالبة المال مقابل دعوة بالرزق من الله للمُعطي.. وهنا يقف عيسى مندهشًا، إلى أن بدأت الحافلة تأمر عجلاتها بالمضي قدمًا، يشير عيسى بحبور إلى كل شيء ويهتف: وهذا حقيقي؟ يهز العسكري رأسه مبتسمًا: حقيقي، وهذا.. وهذه.. ما تلك؟ ومن هؤلاء؟ وأسئلة لا نهاية لها.

بالقرب من المستشفى، حيث سيتم اللقاء حدثت الكارثة، وعيسى لا يعرف ماذا يحدث. عسكر النجدة عُزّل بلا أسلحة يهربون من أناس يبدو أنهم أشرار بذقون طويلة، وأسلحة أطول يهاجمون ويطلقون النار من فوق سيارات طويلة لا غطاء لها.. من يلحق من؟ يلتفت إلى العسكري، كالعادة، يستوضح الأمر، يجد نفسه وقد أصبح في أحضان العسكري الذي يهرع مقلدًا حشودًا من الناس إلى داخل المستشفى. ترك عيسى هناك وعاد إلى موقع الاشتباكات، وعيسى في حيرته لا يزال يرى أناسًا يشكلون فريقًا أبيض. يتساءل: "لماذا

يتخفون وراء أقنعة؟ أتراهم يفعلون أشياء خاطئة؟!" ثم دخل المصعد ظنًا منه أنها آلة زمن ستعيده إلى زمن كانت الغرفة فيه عالمًا كبيرًا لا وجود فيه للأشرار، زمن كانت فيه أمه كل البشر، والخير فيه ينتصر على الشر.

الانتحاري ٥٠١

قررت الانتحار. الساعة الآن 09:11 مساءً، على بعد خطوة من الموت في سطح عمارة "لا إله إلا الله"، أقف وحدي، ومن حولي أرى الرياح تعصف بكل شيء، أما في الأسفل لست أرى سوى الموت بانتظاري. إذا ما قررت التقدم خطوة إلى الأمام ربما تغدر بي الرياح وتفعلها عوضًا عني، فأهوي وتهوي معي جُل طموحاتي التي حالت الحرب دون تحقيقها. إن كنتُ سأسقط على رأسي من على هذا البعد سوف أصل إلى الأرض وتتفرقع عظامي كلها، وقد تختفي جمجمتي داخل القفص الصدري. وإن فعلتها وسقطت على رجليَّ قد تخرج لي أرجل من الأكتاف. حسنًا.. لا أحبذ هذه النهاية، لكن لا بأس بها. ستقول الصحف عني: شاب جامعي يقدم على الانتحار؛ وستحمل المعارضة الحزب الحاكم مسؤولية ما حدث. سيقول: آخر خذله الحب فانتحر، فضلاً عن العناوين الساخرة التي أتخيلها الآن، كأن يقال: هذه عاقبة من يقلد عباس ابن فرناس.. الكثير سيعلق على حادثة انتحاري على هذا النحو أو ذاك، لكن لا خوف من ذلك، ما أخشاه أكثر هو أن أخلق بفعلي هذا ظاهرة انتحار تسوق عشرات الشباب إلى تقليدي! والأسباب والمسوغات كثيرة، ولن يجد أحد صعوبة في تبرير أفعاله. هل الانتحار حرام؟ لا أظن. يقول القرآن: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة." لم يحرم الانتحار إذن! وآيات التحريم في العموم ليست أكثر من ١٤ آية، لم تحوِ أية منها على ذكر ما أنوي القيام به. إنها حياتي وأريدها أن تنتهي في الوقت

الذي أريد، وبإرادتي أنا لا بإرادة أحد سواي. الانتحار يُنهي الحياة البائسة والخوف، ويبيد الهموم ويرميها في مزبلة العدم إلى الأبد. ليس سيئًا إلا في شيء واحد فقط، هو أن أمنيتي الأخيرة لن تتحقق. تتوق نفسي لأن أتبول بسعادة، كطفل جارنا في وجه أستاذ التربية الإسلامية الذي برر الأعمال الإرهابية بأنها جهاد أكبر! أن أُدخل قلمي الرصاص في أنفه، وأن أشنقه بربطة عنق إيطالية، من صنع الكفار، على حد قوله! يا لها من نهاية بائسة، مقارنة بنهايتي هذه، أنا أفضل من الجميع على الأقل في طريقة مغادرتي هذه الحياة. ما زال عندي وفي ذمتي لشركة يمن موبايل ١٠٠ ريال سلفة، هل سيحاسبني الله عليها ويعذبني بالنار؟ لا أظن، وهل من سرقة في سرقة ما هو مسروق؟! أنا راحل قبل أن تقول لي رصاصة الشرطة: ارحل..

يد ربتت على كتفي. التفتُ. إنه السكير جرني من يدي إليه، بعيدًا عن الهاوية، وأخذني لنسهر في بيت صديق له. جلست بجوار السكير، أصدقاؤه الثلاثة كانوا مثله يشربون الخمر كل ليلة هربًا من الهموم. هكذا برروا ما يفعلونه.. عرض عليَّ تلك الليلة شرب الخمر، لكني لم أشرب، اكتفيت بمشاهدتهم إلى أن أخرج أحدهم مسدسًا أمريكيًا "أبو عجلة". أعجز عن وصف ما شعرت به حينها.

تمتم بطريقة بطيئة، واصفًا المسدس في يده:

"ما يقتل إلا صديق".

أخرج من جيبه رصاصة عيار ١٦:

"لنجرب صحة هذه المقولة".

وضع العيار الناري في واحدة من الخانات الست، أدار عجلة الذخيرة، أطبق عليها وقام بتصويب المسدس نحو رأسه:

"ليلاااه!"

صاح وهو يضع أصبعه على الزناد، في حين كانت العيون تترقب لحظة اختراق الرصاصة لرأسه. يبست شفاهنا حين اتخذ القرار المرعب، وضغط على الزناد.

خيَّم الصمت عليهم للحظات عقب سماعهم فرقعة الزناد، استعاد بعدها الرجل أنفاسه وابتلع ريقه بعد هلع.. قال بفرح:

"ما يقتل الحي قاتل".

يقصد أن من كُتبت له الحياة فما من شيء قادر على قتله.

أدار عجلة المسدس مرة أخرى، ومد يده بالسلاح إليهم:

"لنرى من هو الصديق الحقيقي."

أخذ السكير المسدس وفعل كما فعل صديقه، ضغط على الزناد فلم تخرج الرصاصة. ألا يدركون أن حياتهم على المحك؟ لا أظن، على الأقل، إلى تلك اللحظة التي أخذ فيها صديقهم الثاني المسدس ووضعه في رأسه وأطلق، وتطايرت الدماء في وجوهنا. استفاقوا من سكرهم، هربوا من الفزع ما عداي، استغللت الفرصة وقطعت رأسه، وأرسلت بالتسجيل المصور إلى الرجل الغريب، وأصبح في عمري ٣٦ ساعة من الحياة.

المصعد

اعتقد الجميع أنني أطلقت النار على الملحد متعمدًا؛ إذ لم يكن لدى أيِّ أحد منهم تفسير مقنع لما حدث مني أمامهم، وربما فكروا في الأمر وتوصلوا أخيرًا إلى أن التفسير الأنسب والوحيد لما حدث هو أنني قد غيرت تكتيكي، أو الخطة التي رسمتها للقضاء عليهم، وربما فكروا لوهلة أني اخترت أن أقتلهم بعشوائية.

"لماذا تنظرون إليَّ هكذا؟!"

قلت لهم باستياء منزعجًا من نظراتهم. بقوا صامتين لبعض الوقت، ولم يجب عليَّ سوى الملتحي:

"لقد أردت قتل واحد منّا، ونلت مرادك."

أضاف مستهجنًا:

"والآن تريد إنقاذه!"

ارتبكت لوهلة، ثم رحت أبرر فعلتي، قائلاً إنني لم أتعمد إطلاق النار، لكن أحدًا منهم لم يصدقني على ما يبدو.. وما أهمية ذلك؟ لذا تحولت كلماتي اللينة إلى غضب. قلت لهم بلا مبالاة إنني لست مخولاً بالتبرير لأحد، لأن ما فعلته سواء كان بقصد أو غير قصد، كان متوقعًا مني، وأنا لست مجبرًا لأن أنتظر حتى ينفجر الحزام بي، وبأمي النائمة بجواري، بسبب أنهم لم يقرروا الفصل

فيما بينهم، ولم يتفقوا على اختيار الفدائي الذي يجب عليه أن يضحي بروحه لأجلهم. قلت لهم إنه لا يعنيني ما يشعرون به ناحيتي، ولا أهتم بالهلع البادي على أعينهم بسبب خوفهم من الموت، وأنا على حق في ذلك، لا أخضع لأي حسابات معينة تدفعني لتضييع الوقت بالتفكير ومساءلة نفسي بسؤال من الذي يستحق أن يموت في هذه اللحظة ومن لا يستحق ذلك؟ لأني في أعين الجميع قاتل، واسمي سيسجل في سجلات البحث الجنائي، ونشرات الأخبار كقاتل، إرهابيًا كان أو انتحاريًا، وأن تقتل رجلاً متدينًا كان أو ملحدًا، لا يختلف البتة عن قتلك لامرأة، طفل، أو حتى عجوز، كل الطرق تؤدي إلى الإعدام.

توقف الملتحي عن المجادلة، وأنا توقفت أيضًا.. تنبهنا للطبيبة المتسمرة في بقعتها وهي تحاول إزالة وإخفاء بقع الماء التي خرجت منها بفعل الخوف.. لا تزال ظاهرة على سروالها الأبيض الخاص بالأطباء. وبجوارها يعبث الطفل بساعته لحاجة في نفسه.

فجأة، قال الملحد بصوت متعب:

"أريد ماء."

فتحت الطبيبة قارورة الماء له، وساعدته في شربها، كما فعل هو معها قبل دقائق.. شرب ما تبقى في القارورة من الماء، وكنا جميعًا ننظر إليه بشفقة.. قال يحدثنا:

"لطالما هربت من الموت، نعم.. لقد زارني مرتين، وبطرق مختلفة وعصرية.. في الأولى أتى على هيئة صاعقة رعدية، أجهزت على والديَّ في البيت. أما

الثانية فلاحقني الموت في رصاصة انطلقت من فوهة بندقية صوبها صاحبها نحوي بمهارة، لكنني نجوت من قبضة الموت بأعجوبة".

استل نفسًا عميقًا.. تنفس ببطء، واصل حديثه:

اليوم أجدني بين يدي الموت، ذلك الذي يأتي به من تدعونه "عزرائيل"، وقعت في شراكه أخيرًا، وأشعر أني أعيش لحظاتي الأخيرة، وما أتعس الملحد حين يواجه هذه اللحظات، إنها النهاية، فأنا ملحد، ولا أعتقد مثلكم بيوم آخر بعد هذه الحياة.. لم نأنس بحياتنا هذه، فكيف أصدق أن حياة أخرى، وحورًا عين بانتظاري هناك، في متجر تحقيق الأمنيات المسمى "جنة"!

سأغني حزنًا كالبجعة[15]

وسأرقص، هل رقصي بِدعة؟!

يا له من مسكين، ما به هكذا يهذي؟ تساءلت بصوت خفيض.. قال الصحافي لي همسًا:

"يبدو أنه شاعر."

سمعنا الملتحي يدمدم:

"والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون.."

---

١٥ يقال إن البجع لا يغني إلا عندما يدنو من الموت.

ردد المسكين بيت شعر آخر:

"يأبى الإيمان مغادرتي.."

ماذا؟! نعتناه بالملحد من بداية وجودنا في المصعد، وها هو يعترف الآن بأنه مؤمن...

"من يأبى النور سوى الشمعة؟

"والرجل الوطواط!"

علق الطفل.

تابع الملحد قصيدته بعد نهنهة وسعال:

"أتوسل عزرائيل بأن..

يذهب للرب بلا رجعة..

سأقول له إن جاء إليَّ..

أرجوك اصبر.. حتى الجمعة..

سأقبل أخمص قدميه..

سأريق له مئتي دمعة..

عض على شفتيه وهو يضغط بيده على جرحه متألمًا.

تأتأ في قول البيت الأخير من القصيدة، ولم يُفهم منه إلا شطرها الثاني:

"وأسُب الدُنيا مُجتَمِعة."

أخذ الملحد هاتفه من الكوت الملقى بجانبه وناوله الصحافي: "هاك هاتفي"، تردد الصحافي قبل أن يمد يده ويأخذ الهاتف. أضاف: "ستجد في الذاكرة الخارجية بعض المقاطع الخليعة، تلك التي يُكتب عليها قبل المشاهدة "للكبار فقط"، آمل أن تتكرم بحذفها، وكذلك الصور.. ثمة صور لفتيات تعرفت عليهن من خلال الفيسبوك، كنت قد أقسمت لهن ألا أحتفظ بالصور لأكثر من يوم، صدقن القسم، ونسين بأنني ملحد..

أنا ملحد بالإله الذي يصورونه لي، لا بمن خلق كل هذا العجب.. أردت منك محوها كي لا تجلدني ألسنة الناس بالسب والشتيمة عندما أموت، فقط لأنني أشاهد بشرًا عُراة.. قم بمحوها أرجوك، ودع رحمة ربك، إن كانت موجودة فعلاً، تنزل حتى على الملحدين، بحسب قولكم: التائهين أمثالي."

سعل مُتعبًا تكاد روحه تخرج مع سعاله ودمه. تمتم بكلمات تبدو أنها الأخيرة، تمتمها بصوت بالكاد يُسمع، كأنه يهذي، ورأسه مطأطئ، ويده على الجرح.. سألت نفسي: أتراه يحتضر؟ قال: "إذا كتب لكم الحظ أن تخرجوا من هنا أحياء، وهذا ما أتمناه، فلي عندكم رجاء.." نوبة سعال حادة أوقفته عن الكلام. واصل: "أخبروا مريم أنني عاتب عليها لتخليها عني في تلك الأيام العصيبة، لكني اليوم قابلتُ خُذلانها لي بالوفاء، لبيتُ نداءها الغريب لي، وأتيت من عدن إلى صنعاء لنجدتها." قطع حديثه بضحكة عجز عن كتمها: "أتيتُ لنجدتها، وها أنا ذا أبحث عمن ينجدني".

عاد إلى سعاله مجددًا، بطريقة أكثر حدة، ولا أدري ما الذي طرأ في بال الملتحي ودفعه للجلوس أمام الملحد على ركبتيه، ليصبح كل وجه مقابل الآخر.. بدا الملتحي منفعلاً وهو يهز كتفي الملحد ويسأله:

"متى تحدثت مع مريم، أين هي؟!"

شفتا الملحد تتحركان، لكن بلا صوت.

"تكلم.. تكلم."

لم يستطع أحد تخمين ماذا يقول. نعم، لقد عجز عن النطق فجأة، وما زال الملتحي يحثه على الحديث:

"قل لي أين مريم.. أين ابنتي.. أين هي..؟"

لا جدوى من هز كتفيه الآن.. أغمض عينيه، ونكس رأسه، وغرغر، سائل أبيض يخرج من فمه، ولا يزال الملتحي ينتظر منه الجواب. أطلق الطفل صفارته فجأة: لقد نام. هتف والصمت مطبق عليهم.. أكد:

"نام إلى الأبد".

تُرى من تكون مريم هذه؟ تساءلت في سري. كان عليَّ انتظار الملتحي حتى يكفَّ عن هز الملحد المسكين، لأسأله:

"هل تعرفه؟"

استمر نشيج الملتحي. نظر إليَّ ولم يستطع أن ينطق ويقول: لا، لا أعرفه. هز رأسه نافيًا، لأعود إلى حيرتي يحاصرني سؤال:

"ومن تكون مريم؟!"

طرحت السؤال على الملتحي، لكنه آثر الصمت واقتعد بجوار الجثة مسندًا ظهره إلى جدار المصعد، وقدماه نصف ممدة إلى الأمام. كررتُ السؤال.. لم يرد، وربما لا يريد.

كعادته حين يسود الصمت، هتف الطفل:

"إنها أمي."

التفت الملتحي إليه متفاجئًا كما فعل بقية الأحياء هنا:

"أمي اسمها مريم، وأنا عيسى.. عيسى ابن مريم".

ما أن انتهى من لفظ الاسم حتى اقترب الملتحي منه زحفًا على ركبتيه يتفقد عقدًا في عنق الطفل رُبطت الصفارة فيه. فجأة ترك العقد من يده وشد على يدي الطفل يسأله:

"أين أمك.. أين مريم.. أين هي؟"

بدا الطفل خائفًا حين قال:

"هناك."

وأشار إلى الفراغ:

"خلف الجبل."

بدأ الملتحي يسأله: بمعية من أتى وكيف؟! وهل أمه حية أم ميتة؟! دنت الطبيبة من الطفل، دست يدها في جيب سرواله الخلفي، أخرجت ورقة ملفوفة بشريط أسود، فتحتها.. سألناها ثلاثتنا، الملتحي والصحافي، وأنا:

"ماذا كُتب فيها؟"

بدت مندهشة وعيناها لم تفارقا الورقة. وبدأت تقرأ:

"المدعو: أبي.. أحمد الله كثيرًا على جعله الجنة تحت أقدام الأمهات، لأن أمي حنونة رحيمة، إذا مسها مني سوء، ومهما تأذت أعلم أنها لن تترد لحظة في الغفران لي.. ولو كانت مفاتيح الجنة بيدها فلن تترك أبواب الجنة مؤصدة أمامي. لكن ماذا لو أن الجنة تحت قدميك؟ ستدوس على جنة ربك التي أنعم بها عليك، تمامًا كما فعلت معنا نحن البنات.. بناتك.. دست على مشاعرنا بلا رحمة، ودون اكتراث، ونحن لم نكن نملك سوى أن نقابل أفعالك تلك بالحمد والشكر، طاعة لك، ومرضاة الله، كأنا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لنهان.

توقفت الطبيبة عن القراءة وخرجت من صدرها زفرة. استعادت أنفاسها، ثم واصلت:

"إن وصلتك رسالتي الأخيرة، أو، إن جاز لي القول وصيتي؛ إذا وصلت إليك وقرأتها، أو قرأها لك أحد، فإني أشك أن يؤثر فيك ما سأقوله عنك، وربما تمزق هذه الورقة قبل أن تصل في القراءة إلى هذا السطر، لأنك أيوب أبي.. لا أيوب النبي..

أبي.. أجد صعوبة في كتابة هذه الكلمة رغم أن حروفها ثلاثة وبسيطة، مع ذلك أشعر بغبطة حين ألفظها".

نظرنا جميعًا إلى الملتحي الذي بدا لنا وكأنه يغالب دموعه، بينما تكمل الطبيبة قراءة الرسالة:

"لطالما تساءلت في نفسي: هل أنا ابنتك حقًا؟ ولم أجد منك أجابة.. ستقول لي إنه لا يشرفك أن أكون ابنتك بسبب ما حدث. وبالمثل سأقول لك متسائلة: وهل عاملتني يومًا معاملة الأب مع ابنته؟ لم أشعر لحظة أنني ابنتك.. غالبًا ما تأخذني أفكاري، بسبب تعاملك الفظ معنا، إلى ما هو أبعد، ولولا أن أمي أقسمت لي بأنني جئت من صلبك لأيقنت أنني لقيطة.

لقيطة عشقت لقيطًا، نذلاً، وجبانًا. نعم لقد كشف لي العسكري حقيقة شريكي في الإثم، إنه لقيط، ابن حرام، والحظ أكرمه ورماه إلى أحضان سيد يملك كل شيء تقريبًا، إلا الشيء الذي يتمناه: الأطفال. لقد كان عقيمًا، ما أشبهنا ببعضنا! أي رجل قبيح ذلك الذي يريد أن يترك ابنه في الشارع ليلقى المصير نفسه الذي واجهه قبل زمن، لقيط يتشرد من شارع إلى آخر بانتظار هدايا القدر، لعله يرميه في سبيل عائلة ميسورة الحال ترأف به وتتبناه!

لا أحد يتحمل مسؤولية ما أنا فيه اليوم إلا أنت. لو أنك أشعرتني ببعض الحنان، لو احتويتني، ما كنت لأذهب إلى أحد أستجدي منه ما حرمتني، الحنان والاهتمام. لو كنت لي أبًا حنونًا، سندًا وعصا أتكئ بها كلما وقعت لكنت استنجدت بك بلا تردد، لإنقاذي من ذلك النذل. أردت أن آتي إليك وأقول

باكية: أنا حبلى، وأحكي لك القصة كاملة، لتأخذني إليك وتكفكف دموعي، ثم تبحث معي عن حل لهذه المصيبة، لكنك.. آه.. لماذا فعلت بنا ما فعلت.. لماذا؟!"

لم يعد الملتحي يستطيع كبح دموعه، انفجر باكيًا بشكل غريب. توقفت الطبيبة ونظرت إليه، شأن الجميع في المصعد، مشفقة عليه.. جميعنا الآن يعرف أن الملتحي هو المقصود في الرسالة. لكن لا يزال الأمر بالنسبة لي غامضًا.. حثها الملتحي البائس على المواصلة.

"هذه كلماتي الأخيرة، أقول لك فيها إني سأهبُ لك ما حُرمت منه، عيسى الصبي الذي تمنيته.. أمنحك إياه، وأرجوك أن تقبل هبتي. وضعك القدر بين خيارين، إما أن تقبل بمريم وأخواتها دون أي فضائح أو شعور بالعار، أو أن تستبدلها من القدر بصبي من لحمها ودمها، وما دمت ضيعت الفرصة الأولى، خذ عيسى، حافظ عليه، ولا تضيع الفرصة للمرة الثانية..

عيسى.. أرجو منك مسامحتي إن كنت قد آذيتك.

قلبت الطبيبة الورقة وهي تنشج. قرأت جزءًا تخاطب فيه الملحد المسمى، في الرسالة، عبدالله:

"عبدالله.. سألتك مرة: كم شهيدًا سننجب؟ لم أكن أعرف الإجابة آنذاك، ولا حتى أنت.. كما لم أكن أعرف معنى الشهادة. أما الآن فأنا الوحيدة التي تعرف.. لم توافق أن تكون أب الشهداء، وأنا وافقت على ذلك، وصرت، كما

تمنيت، أمّا.. وها أنا ذي أهديك الشهيد الوحيد الذي أنجبته دون رغبة.. كم هي بائسة الأشياء التي نصنعها عن طريق الخطأ، لا نفتخر بها أمام الناس، ولا نتباهى بها مثل أي شيء آخر يخصنا، بل إننا، بشكل قبيح، نحاول التملص منها ونستحي أن نقول لأحد: هذا يخصني، ينتمي إليَّ، لقد صنعته أنا.. وأنا فخور به!"

كنتُ شارد الذهن أستمع للطبيبة وهي تقرأ علينا محتوى الرسالة.. تحول المصعد إلى حائط مبكى، والدموع أصبحت تنهمر من كل عين إلا عيني. أنظرُ إلى ساعة العد التنازلي: ماذا؟! لقد انتهى الوقت. أتفحصني، لم أنفجر بعد.. كيف؟! ولماذا؟! لم أكمل المهمة، لم أنحر الضحية، ولم أرسل أي شيء إلى الرجل الغريب. لماذا لم أنفجر؟! هل كان يخدعني طوال هذه الأيام؟! أيعقل أنه استغل خوفي وصيرني إلى ما أنا عليه الآن! لن نموت، لن نموت.. هتفت بفرح سرعان ما قتله صوت غريب يصدر من خلف الباب.. الصوت يتضح أكثر وأكثر، أمي بجواري شبه ميتة، وأولئك يترقبون أن يطل عليهم المنقذ من وراء الباب.. وأنا.. آه أين أنا؟ ماذا أفعل. قلبي يعظني ويقترح لي أن أخبئ المسدس.. عيني تحذرني من الملتحي، قال لي: "أنت ميت"، أعلم ذلك.. ومن قال إنني حي؟ أنا ضريح يمشي على اثنتين.. فُتِح الباب على مهل.. أصوات أجهزة رجال الأمن لا أصوات سيارات إسعاف، لا، لا أدري، لمن هذه الأصوات؟ لقد أتوا وأنا، يجب عليَّ الآن أن أغادر، أقبل والدتي في جبينها. وداع من طرفٍ واحد، لا بأس.. من يحتمل رؤية أمه تبكي

انتحاره؟ وضعت المسدس على رأسي أتمتم بكلماتي الأخيرة قبل الرحيل، العرق يتصبب من جبيني، ضوضاء في الخارج لا يشكلها سوى مجموعة من الناس إن كانوا الإرهابيين أم رجال الشرطة فإن كلاهما، بطبيعة عمله سيرسلني، وبضغطة على زناده إلى الجحيم.. وهناك كما اتفق الكثيرون سأنال عقابي. لا.. في الجنة سأكون! إن شاء الله، يقول الفقهاء: من كانت أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، آخر كلامه في الدنيا دخل الجنة! هذه نهايتي.. حان وقت الرحيل. ألمس الزناد بأصبع ترتعد من الخوف.. الخوف من أن يفتح الباب.. فُتح الباب..

"ارمِ السلاح." صرخ عسكري:

"ارفع يديك إلى الأعلى." هتف آخر.

أشهد ألا إله إلا الله..."

تمتمتُ بجسد ملؤه الموت وضغطت على الزناد...

الانتحاري ٥٠١ في السجن

لم أكن أفكر أن ذلك الشاب الذي دخل علينا إلى المقهى بحزام ناسف، يمثل في قوله إن الحزام الذي بحوزته سينفجر بعد قليل. ظننته مثلي، تم اختطافه وأصبح دمية بين أيديهم يحركونها كيف ووقتما يشاؤون.. أخبرته أنني أيضًا ألبس حزامًا ناسفًا، وأشهرته له ولزبائن المقهى، وإذا به يهرب معهم إلى غير هدى.. بينما كانت الكاميرا تصور.. لم أمسِ تلك الليلة إلا وقد أصبحت صورتي منشرة على مواقع التواصل الاجتماعي، ونشرات الأخبار موسومة بكلمة "مطلوب."

قبل ذلك كنت قد قررت التوقف عن هذه الأعمال الإرهابية.. لن أقتل أحدًا، ولن أزهق روحًا أخرى بعد اليوم سوى روحي. سأموت أنا كي لا يموت المزيد من الأبرياء، كنتُ حزينا جدًا، أندب وألعن حظًا وضعني في هذا الطريق المليء بالدماء، استعدت إلى ذاكرتي نظرات الضحية الأخيرة وهي تحتضر بين يدي، بعد أن قررت قتلها من أجل أن أحيا وأعيش.. دمعت عيني، ندمت على كل ما فعلته، وبدأ ضميري يجلدني و.. بكيت.. لماذا أبكي؟ هذا قضاء الله وقدره، ما ذنبي أنا؟ مسحت دموعي وبدأت أقول لنفسي: أنا أيضًا ضحية كهؤلاء الذين وقعوا في قبضتي، وما فعلته كان من أجل البقاء على قيد الحياة.. لو كانوا مكاني لفعلوا ما فعلته، لا شك في ذلك. فليس هنالك أحد يرضى لنفسه أن يموت في سبيل أن يحيا الآخرون ويعيشون بسلام إلا الأنبياء، وأنا لسوء الحظ لست نبيًا.

أكثر ما كان يؤرقني هو مسعاي الدائم ودأبي لأن يكون لموتي تأثير يليق بي، كأن تُنكس الأعلام، أو تُعلن القنوات المحلية توقف برامجها لثلاثة أيام حدادًا على رحيلي.. وكم كنت أتمنى لو أن تاريخ وفاتي يصبح بعد الفاجعة إجازة رسمية يفرح بها أطفال المدارس، ويستغلها موظفو الحكومة البؤساء للخروج مع زوجاتهم التعيسات في نزهة يرتحن فيها قليلاً. كل هذا كان من الممكن أن يحدث لو لم أكن الشبيه الأقرب لمصعب.. لو لم يكن يشبهني.. لو لم.. آه، ما عادت "لو" تفيدني الآن.

هذه كلماتي الأخيرة في هذا العالم الطافح بالظلم.. أصدرت المحكمة عليَّ حكمًا بالإعدام شنقًا، وهذا أمر كما يقول المحامون لا رجعة فيه، لذا قررت أن أكتب حتى لا أُنسى، حتى لا أبقى فقط صورة على شهادة وفاة أو في برواز معلق على الجدران.. سأمنح الصحافي أوراقًا كتبت فيها قصتي مع الحزام الناسف؛ بالإضافة إلى هذه الرسالة..

لقد مسني الظلم من الجميع، كيف يعاقبونني على قتل أولئك الجنود، تلك المطلقة الفاتنة، ذلك الفتى الشاذ، زوجة أبي، وعامل النظافة الأحدب، وسائق الباص.. وأخيرًا الشاب الملحد الذي اسمه عبدالله.. هل من قتل في قتل مَن هو مقتول؟!

لقد عاشوا قتلى بالمعنى الحرفي للجملة، لأن ما كانوا يعيشونه لا يجوز أن نسميها حياة، ثم من قال إن الموت أمر سيء لهم؟ هل الحياة، بالمقابل، أمر جيد؟ هذا الصراع الذي يحدث بيننا والآخرين كل يوم من أجل كسرة خبز،

هل يسمى حياة تستحق أن تُعاش؟ من اختبأ وراء أصبعه وقال نعم فهو إما مجنون أو شخص له طموح بحجم هذا الكون، وأنا لست هذا ولا ذاك. ليست حياة هذه التي رغم رحابتها تعجز فيها عن إيجاد مكان ملائم تموت فيه بسلام.

عندما وجدتني في هذا المأزق كان يلزمني أن أتصرف كالملاك، أن أؤثر الموت لي على أن يعيش الآخرون حياتهم بسلام، لكنّي إنسان.. فلم أفعل ذلك. نعم.. كنت ذلك الإنسان الذي أقدم على قتل أخيه عندما شعر بأنه سيموت، سينقرض، ويغلفه الفناء.

إن كان ثمة من يستحق العقاب فالحق ألا أكون أنا، بل الدولة. لو كان المسؤولون بقدر المسؤولية وكانت قوات الجيش والأمن تقوم بدورها في حماية المواطن كما يجب ما تمكن المجرمون من اختطافي من الشارع على مسمع ومرأى من الجميع. لو كان الأمن سائدًا في البلاد ما كنت لأقتل جنديًا واحدًا بتلك السهولة.

ما الذي يدفعنا للتمسك بحياة متخمة بالهموم والمفاجآت غير السارة؟ حياة ليس لنا فيها شيء سوى التعاسة. حياة لنا فيها حقوق لا نحصل عليها، وبالمقابل نُغصبُ فيها على تأدية واجباتنا، مصحوبة بواجبات أولئك الذين لم يسألوا أحدًا يومًا: ما معنى أن تكون مملقًا؟ في الصغر تسأل زميلك: هل تملك قلمًا زائدًا؟ ويأتيك بقلم صغير جدًا بالكاد تمسكه أصابعك.

الجميع، في هذه المدينة عندما تصاب بأذى يحثونك على الصبر، قائلين: لا تحزن إن الله معك.. لكن ما إن تصيبهم اللعنة نفسها إذا بهم يبكون بسخاء، يبدون أكثر حزنًا مني. أي تيه هذا الذي نحن فيه؟!

أنا مستاء، بل غاضب جدًا.. وهي لحظة مناسبة كي تخرجوا لي ألسنتكم ساخرين.. أجزم أن أحدًا لن يخرج لسانه ليسخر، بل ستغمضون أعينكم لحظة البت في حكم الإعدام، فالجميع يشفق عليَّ، باستثناء أولئك الذين قمت بذبح أحبائهم.

أمي، أستميحك عذرًا.. بسببي ستشير أصابع الناس إليك باحتقار، ليس لأنك حقيرة، بل لأنكِ أم لفتى حقير. بكل صلافة ووقاحة سيهمس كلٌّ منهم للآخر وأنظارهم مصوبة إليك "هذه أم الإرهابي"، سيستمرون بنعتك بهذه الكنية إلى اليوم الأخير من حياتك على هذه الأرض..

أعلم جيدًا أن أسفي لن يقلل من وطأة حزنك، لكني يا أماه لا أملك سواه..

أنا حزين لأننا لم نعش سعداء لمدة طويلة، مثل بعض المحظوظين، الذين أكرمهم القدر بحسن طالعهم، فأخذ نصيبنا من السعادة ووهبهم إياه، وأخذ نصيبهم من التعاسة وبصق به على أيامنا نحن! أنا، وإلهام، وأنتِ يا أماه لم نكن من المحظوظين أبدًا، لقد شاء الله ذلك، وطلب مِنا حمده وشكره. حسنًا.. لك الحمد يا الله حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.. وأنا، ومن هم على شاكلتي، علينا اللعنة!

الختام

نجاح قصتي هذه لم يعد مهمًا بالنسبة لي بقدر ما يهمني الآن نشرها، ف "سلا"، الفتاة التي أُحب، والتي كان الوصال بها الدافع الأول لكفاحي، تزوجت من ابن عمها وتركت وراءها كل شيء يصرخ في وجهي ويقول: فات الأوان..

أنا الصحافي المذكور في الرواية باسم صادق؛ واسمي هذا يتبرأ مني في كل القصص التي كنت قد كتبتها زمن "صحيفة الشاهد"؛ باستثناء قصة واحدة فقط؛ هذه التي أنهيها الآن.

المُلحد، والملتحي كلاهما استلم رسالة من الرقم نفسه الذي قالت الطبيبة إنه يخص زميلة لها في قسم الولادة. نعم.. لم تكن الطبيبة التي علقت معنا، نفسها التي أوكلت إليها مريم، عن طريق العسكري، مهمة جمع المعنيين بها وبولدها الوحيد عيسى. أما أنا فالفضل وراء وصولي إلى هناك يعود إلى أم الانتحاري.

قررت مراقبة المنزل وتعقبها أينما راحت، وذلك بعدما وجدتها تجيب على أسئلتي بطريقة تثير الشكوك. تعقبتها إلى أن جمعتني بابنها الانتحاري دون أن تعلم.

أمس الأحد، استلمت من الفتى الانتحاري الأوراق التي كنت في وقت سابق قد أعطيته إياها ليكتب فيها قصته، وعندما انتهى من كتابتها أخذتها منه بعد أربعة أيام وأكملت ما نقص، راجعتها بمساعدة المصحح اللغوي ووضعتها بين دفتي هذا الكتاب.

عندما كنا عالقين في المصعد كانت كاميرا الفيديو بحوزتي قيد التشغيل، وثقت كل ما حدث هناك في ذلك اليوم المريب، وكشفت عن أمور خطيرة تعلقت بمقتل الملحد عبدالله، أولها هو أن الملتحي استغل انشغال الانتحاري بوالدته، ودفع الملحد نحوه مما جعل الانتحاري يطلق النار عليه فورًا. الأمر الثاني هو أن الطبيبة كانت بحوزتها مواد مطهرة كان من شأنها إنقاذ الملحد من الموت، غير أن الطبيبة قامت بإخفائها، كما تقول في التحقيقات، حفاظًا على حياة الآخرين في المصعد.. "بموته يموت عذر الانتحاري في قتل شخص آخر أو قتلنا جميعًا".

حُكم على الملتحي بالسجن ١٢ عامًا. أما الطبيبة فكان جزاؤها السجن ٥ سنوات، مع حكم قضى بمنعها من مزاولة عملها كطبيبة إلى الأبد.

بالنسبة لمريم، فقد تم إخراجها من ذلك القصر الكائن تحت جبل، لا أحبذ ذكر اسمه؛ لسبب خاص. عادت مريم إلى حضن أمها مع عيسى وواصلت حياتها هناك، بينما اختفى الشاب الذي اختطفها بعد مداهمة القصر وإطلاق سراح مريم، وقد رجح إعلاميون أنه قتل.

أما الانتحاري، فمصيره كان الأغرب والأعجب بيننا نحن العالقين السبعة في المصعد، لا أحد يدري كيف.

في اليوم الذي كان من المقرر إعدامه، اختفى من الزنزانة، ولم يجد له ضباط السجن أي أثر.

تمّت

يناير ٢٠١٧

صنعاء